

الفصل الأول

فاعلية المكان في الغرض الشعري

توطئة

المكان من العناصر المهمة التى تؤثر فى حياة البشر، وجاء الاهتمام بالمكان مع بدء النهوض الاجتماعى والفكرى للإنسان، ولا أظن هذا الاهتمام جاء عفواً الخاطر دون دلالات انتهائية ونفسية ووجدانية وجمالية وشعورا بالانتماء إلى الأرض^(١).

إن المكان يثير إحساساً بالماضى والحاضر، فأكثر الشعراء القول فيه سواء أكان بحقيقته أم برموزه ودلالاته، فهو وسيلة وليس غاية كما أن حقيقته فى الشعر نفسية وليست موضوعية فهو عنصر فنى مكتنز بالقيم والأفكار^(٢). وذكر الشعراء له - أى للمكان - جاء نتيجة ارتباط المكان بهوم الشعراء وإثارة أشواقهم فضلاً عن ذلك الحنين إلى تلك الأماكن.

يعد الإنسان والمكان كالروح والجسد ((حيث المكان مؤهل للكشف عن لا وعى الشخصية وحيويتها النفسية والاجتماعية، لأنه ببساطة لا معنى ولا دلالة للمكان بعيداً عن الإنسان الذى يقوم بتنظيمه وإجراء عمليات التقطيع والمفصلة فى بنيته وفقاً لآليات ثقافية محددة))^(٣).

والمكان وسيلة تعبير عن معاناة الشعراء لذا أصبح مقترنا بالغرض الشعرى بل وأداة فاعلة فيه، ودخل المكان بدلالاته الانتهائية والنفسية وبكثافة عالية فى الغرض

(١) ينظر: الرواية والمكان، ١/ ١٠.

(٢) ينظر: التفسير النفسى للأدب، عز الدين إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٤، ٥٠.

(٣) شعرية المكان فى الرواية الجديدة، خالد حسين حسين، كتاب الرياض، العدد ٨٣، أكتوبر ٢٠٠٠ م،

الشعري فهو ((وسيلة للإفصاح عن مشاعر الحزن والحنين والغربة والخوف والقلق))^(١).

وشعراء الأندلس من الشعراء الذين استخدموا المكان أداة للتعبير عن معاناتهم فجاء مقترنا بالغزل، فلا تذكر الديار إلا وتذكر الحبيبة فهي علاقة ارتباط بين الشاعر والمرأة علاقة تذكر للديار والأحبة، والأمر نفسه يقال بالنسبة للمديح إذ عكس الشاعر المكان بدلالاته ورموزه على ممدوحه وأخذ الشعراء المكان بجماليته، ليكون ساحة تستوعب صفات الممدوح ((والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز وما أنضى من الركائب وما تجشم من هول الليل وسهره وطول النهار وهجره.. ثم يخرج إلى مدح المقصود))^(٢).

ويدخل المكان بكثافة عالية في الوصف ونقصد به ((وصف الجمال الطبيعي للمكان))^(٣) هذا الوصف لهذه الأمكنة يمكن القول بأنه يخلق إمكانية نفسية وفكرية للعلاقة بين الإنسان والمكان وثمة علاقة أخرى بين المكان والشعر، ففهم المكان من فهم الشعراء، أما الإمساك بالمكان فهو الغرض الأساسي الذي يسعى إليه الشخص^(٤).

فقد بقي المكان يؤدي دوراً فاعلاً في الغرض الشعري فضلاً عن كونه وسيلة فنية معبرة عن الكثير من المشاعر الداخلية وسواء أكان الغرض مديحاً أم رثاءً أم هجاءً أم فخراً، فإن المكان يظل فيه شاهداً حسياً على متغيرات تلك الحياة الإنسانية وما يحتدم من صراعات الواقع^(٥)، لذلك ارتأيت في هذا الفصل الحديث عن المكان وأثره في الغرض الشعري بدءاً بالغزل ونهايةً بأغراض أخرى.

(١) دلالة المكان في مدن الملح، لعبد الرحمن منيف، محمد شوابكة، مجلة أبحاث اليرموك، الأردن، مج ٩، ع ٢، ١٩٩١م، ١٩.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت: ٤٥٦ هـ) حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، ط ٤، ١٩٧٢، ١/ ٢٢٦.

(٣) جماليات المكان في شعر عرار، د. تركي المفيض، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، عمان، مج ٤، ع ٢، ١٩٨٩م، ٢٠٥.

(٤) ينظر: المكان في الشعر العربي قبل الإسلام، ١٩.

(٥) ينظر: المصدر نفسه، ٣١٤.

المبحث الأول

المكان والغزل

الغزل من الأغراض الشعرية المحببة إلى النفس، فهو يصور أشواق المحبين ولواعجهم، ولم يحفل العرب بشيء من احتفائهم بالغزل، وهو من أصدق أنواع الشعر عاطفة، وصور فيه الشعراء أشواقهم وإحساساتهم نحو المرأة تصويراً للنفوس وكشفاً لدواخلها^(١).

والشاعر العربي رأى ((أن المرأة هي جماع مظاهر الجمال وصوره فهو لا يشهد غيرها في حياته الرئيسية وهي تكاد تكون لذلك محور اهتماماته النفسية ووثباته العاطفية))^(٢). وكان الغزل اللغة الناطقة لاستمالة تلك المرأة وجذب عواطفها.

ويمكن القول إن الأندلس قد ازدهر فيها شعر الغزل وكان مرده إلى البيئة الأندلسية ((حيث امتزج العرب بسكان الجزيرة الأندلسية وعاشوا حياة حضرية ناعمة أغرتهم بشتى وسائل اللهو والمجون وحررتهم من كثير من الأغلال والتقاليد الموروثة، ثم إن الأندلس كان لها حظ كبير من الجمال البشري كَحَظَّ يَبْتَنُّها من الجمال الطبيعي، مما استرعى أنظار العرب ونبه عواطفهم))^(٣).

فقد جسد المكان فاعليته في الغزل بكونه المدخل الأساس الذي يلج من خلاله الشاعر، كي يظهر المكونات الخفية التي تحتلج في نفسه فأصبح جزءاً من الغزل

(١) ينظر: الغزل في العصر الجاهلي، محمد أحمد الخوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١، (د.ت)، المقدمة، ٦.

(٢) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٧٨..

(٣) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٩٠م، ١٩٤-١٩٥.

وسبباً من أسباب وجوده، وإلى هذا المعنى ذهب ابن قتيبة (ت: ٢٧٦ هـ) بقوله:

((وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها.. ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد، وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق نحو القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء))^(١).

وذهب إلى ذات المعنى أبو هلال العسكري (ت: ٣٩٥ هـ) بقوله: ((كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها والوجد بفراق ساكنيها))^(٢) فذكر هذه الأماكن لم يأت اعتباطاً بل كان نابعا من صميم الشعراء فهي أماكن الأهل والأحبة ((هذه العلاقة بين الإنسان والمكان تتم وفق قانون الفعل ورد الفعل، إذ بقدر ما يؤثر المكان ويحفز في الإنسان خصائصه وملامحه فإنه ينحفر - المكان - بالإنسان وفعالياته المستمرة))^(٣).

وإذا ما نظرنا إلى المطالع الشعرية فإننا سوف نجد ذكر الديار والأطلال الدارسة صفة غالبية على هذه المطالع والسبب في ذلك هو لجوء الشاعر إلى هذه الأمكنة ((ليتخذ منها وسيلة تذكره بحبيته، أو وسيلة تساعد على التعبير عن ألم الفراق والصدود خاصة عندما يتعرض لوصف الديار القفراء))^(٤).

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م، ١/ ٧٤-٧٥.

(٢) الصناعتين - الكتابة والشعر -، لأبي الهلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط ١، ١٩٥٢م: ٤٥٢..

(٣) شعرية المكان في الرواية الجديدة، ٦٣-٦٤.

(٤) المطلع التقليدي في القصيدة العربية، دراسة ونقد وتحليل، تأليف: عدنان عبد النبي البلداوي، تقديم: د. إبراهيم السامرائي، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٧٤م، ١٤.

وإذا ما عاد الأمر خافيا فإن هذه الأماكن تجمع ((بين عنصرين أحدهما يذكر بالفناء...والآخر يذكر بالحب))^(١).

وبما أن ظاهرة المكان معروفة في الشعر العربي، فإن للشعر الأندلسي نصيبا من هذه الظاهرة، وربما كان له النصيب الأكبر من هذه الظاهرة والسبب في ذلك يعود إلى البيئة الأندلسية وما ضمت في حناياها من جمال طبيعي، فلهم في الغزل شعر جميل ومؤثر ((فقد كان ينساب على شفاه الشعراء الأندلسيين انسيابا لأسباب كثيرة منها اختلاط الرجال بالنساء وإطلاق الحرية الفردية مضافا إلى ذلك جمال الطبيعة الأندلسية))^(٢).

وإذا كان الدكتور باقر سماكة وضع جمال الطبيعة الأندلسية في موضع الإضافة فإنني أضعها في موضع الصدارة في إثارة الشعراء وتحريك مشاعرهم في قول الغزل ((فقد يتغزل الشعراء الأندلسيون متشوقين إلى أحبتهم فتعن لهم أيام اللقاء بالأندلس وينقطعون عن الغزل إلى وصف مواضع اللقاء بأحبائهم المهاجرين وقد يصف عاشقهم حبيبة مستعيرا له صورة جنة مختلفة الأزهار فتكون الطبيعة حينذاك متكأ في غرضهم الشعري))^(٣).

وكان للشاعر الأندلسي تجربته التي عانى فيها من بعد ديار المحبوبة وبكاءه نأى الأحبة ووقوفه على أطلالهم فهذا الغزال (ت: ٢٥٠هـ) يصب لنا تجربته المعاشة في تجربته الأدبية فيخرج لنا أبياتا نلمس فيها روح الفراق ولوعة الاشتياق وهي تعرج على المكان مضمونا ودلالة يقول:

رِيعَ قَلْبِي لَمَّا ذَكَرْتُ الدِّيارَا وَتَنَوَّرْتُ بِالنُّخِيلَاتِ نَارَا
وَازْدَهَتْنِي ذَاتُ السَّنَا بِبُرُوقِ مِنْ لَظَاهَا فَمَا أَطِيقُ اصْطَبَارَا

(١) روح العصر، دراسات نقدية في الشعر والمسرح والقصة، عز الدين إسماعيل، بيروت، ١٩٧٨م، ٢٠.

(٢) التجديد في الأدب الأندلسي، د. باقر سماكة، مطبعة الإبيان، بغداد، ١٩٧١م، ٤١..

(٣) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، د. هدى شوكت بهنام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٠م، ١٣٢..

والقريحُ الفؤاد يزداذُ لنا رِ وميض السَّعير منها استعاراً^(١)

فقرن ريع القلب بذكر الديار واستخدم معانى الشوق والوجد وعدم الصبر على ذلك وجميع هذه المعانى تنبئ بمرارة الحزن ولوعة الفراق وشدة المعاناة.

ومن هذه المعانى ما ذهب إليه ابن عبد ربه (ت: ٣٢٨هـ) ((قدوة شعراء الأندلس وأدبائها))^(٢) فى قوله:

والدارُ بعدهمُ مقسمةٌ بين الرياح وهاتنِ الودقِ

درجَ الزمانُ على معارفها كمدارج الأعلام فى الرقِّ

لم يبق منها غيرُ أرمدةٍ لُبْدنَ بين خوالدٍ وِرَقِ

وسطورٍ إناءٍ بعتوتها محنوةٌ كأهلةِ المحقِّ^(٣)

إنه وصف حزين لدار الحبيبة، فهو بحق القول ((وطن مكاني مفقود))^(٤).

لقد أصبح المكان ((مستودعا لهذه الذكريات يظل يوحى للإنسان بالعقل المبدع ويمده بالشحنات النفسية والوجدانية التى تعيد توازنه النفسى فى حالة فقدان ذكرياته مع المرأة))^(٥) ويبدو ((أن شعر هذه الفترة لم يستقل استقلالاً تاماً عن شعر المشاركة ولم يتأثر بعد بطبيعة الأندلس الفاتنة))^(٦) وهذا ما نلمسه فى مقطوعة

(١) ديوان يحيى بن حكم الغزال، حققه وشرحه وقدم له: د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ٧٢.

(٢) رايات المبرزين وغايات المميزين، لابن سعيد الأندلسى، تح: د. النعمان عبد المتعال القاضى، لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٣م، ٧٧.

(٣) ديوان ابن عبد ربه، حققه وجمعه وشرحه: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ١٢٠-١٢١.

(٤) وحدة الموضوع فى القصيدة الجاهلية، نورى حمودى القيسى، دار الكتب، الموصل، ١٩٧٤م، ١٠.

(٥) جماليات المكان فى شعر عرار، ١٩٧.

(٦) الأدب العربى فى الأندلس تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه، د. على محمد سلامة، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٩م، ٩٧.

لإسماعيل بن عبد الرحمن القرشي^(١) فقد ابتدأها بكلمة (خليلي) وهي كلمة عادة ما افتتح بها المقدمات التقليدية عند المشاركة وذكر ديارهم حين قال:

خليلى هل ليلى ونجد كعهدنا فيا حبذا ليلى ويا حبذا نجد
عسى الدهر أن يقضى لنا فيارب قرب يجده بعد^(٢)

ومن شعراء هذه الحقبة ابن هانئ الأندلسي (ت: ٣٦٢هـ) الذي قيل عنه:

((ليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق وهو عندهم كالمتنبى عند المشاركة))^(٣) ومن جميل شعره قوله في مدح يحيى بن علي الأندلسي^(٤):

فتكات طرفك أم سيوف أبيك وكؤوس خمر أم مراشف فيك
أجلاد مرهفة وفتك محاجر؟ ما أنت وراحة ولا أهلوك
يا بنت ذا السيف الطويل نجاده أكذا يجوز الحكم في ناديك
قد كان يدعوني خيالك طارقاً حتى دعانى بالقنا داعيك
عيناك أم مغناك موعداً وفي وادى الكرى نلقاك أو واديك
منعوك من سنة الكرى وسروا، فلو عثروا بطيف طارق ظنوك^(٥)

هذه الأبيات ابتدأها بمعانى التشبيب واصفاً جمال الحبيبة بأسلوب استفهامي،

(١) إسماعيل بن عبد الرحمن بن علي القرشي رحل من مصر إلى الأندلس في زمن السلطان الحاكم المستنصر بالله عام (٣٦٠هـ). ينظر: نفح الطيب، ٦٩/٣.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ٧٠/٣.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ٥/٣.

(٤) يحيى بن علي الأندلسي يرجع نسبه إلى عبد الحميد الجذامي أول من دخل الأندلس من أهل الشام وفد على المستنصر ثم عاد إلى المغرب. ينظر: البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المكراشي، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان وألفي برونسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ٢٤٩/٢-٢٧٩.

(٥) ديوان ابن هانئ، تحقيق وشرح: كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥٢م، ٢٦٤.

الغرض منه جلب انتباه المتلقى واستعار جمال العيون من الفتك والسيوف وطيب الريق من مراشف الخمر، وضمن هذه الأبيات ألفاظا مكانية اقترنت بهذا الغزل منها ((ناديك، وادى الكري)) وهذه الأمكنة سواء أكانت حقيقة أم خيالا فإنها مرتبطة بذكريات هذا الشاعر فهو يسأل عن اللقاء بمعشوقته، والوادي في هذه الأبيات له دلالة إشارية تدل على احتواء هذه الأماكن على مشاعر وجدانية عشقية ولجأ الشاعر إلى استخدام قافية كاف المخاطب المكسورة ليؤكد صفة الخطاب في النص.

ولابن هاني قصيدة أخرى يرتبط فيها المكان بالزمان، فالزمن متمثل بالماضي والمكان متمثل بالديار التي قضى فيها أيام الصبا فيذكر عددا من الألفاظ المكانية التي لها وقع في نفسه والتي أثارت الشجون وحركت المشاعر عند المرور بها ومنها ((منعج، الأطلال، الدار، الوادي)) وكل هذه الأمكنة مرتبطة بالحبيبة أى أنه عبر عن هذه الديار وما آلت إليه بعد الفراق بعاطفة صادقة ومشاعر حزينة، وموظفا لها موسيقى بحر الكامل مع قافية اللام المضموم. فقال:

ولقد مررتُ على الديارِ بمنعج	وبها الذى بى غيرِ أنى السائلُ
فتوافقَ الطللانِ هذا دارسُ	فى برُدتى عصبٍ وهذا مائلُ
فحما مالعَمَ ذا نجيعَ سافكُ	ومحا معالِمَ ذا مُلثُ وابلُ
يا دارُ أشبهتِ المها فيكِ المها	والسربَ إلا أنهمَنَ مطافلُ
نضحت جواحكِ الرياحُ بلؤلؤِ	للطلِّ فيه ردع مسكٍ جائلُ
وغدت بجيبِ فيكِ مشقوقٍ، لها	نفسُ تردهُ ودمعُ هاملُ
هلا كعهدكِ والأراكُ أرائكِ	والأثلُ بان والطللُ خمائلُ
إذ ذلك الوادى قنًا وأسنه	وإذا الديارُ مشاهدُ ومحافلُ ^(١)

فتشارك الشاعر مع الديار في مشاعر الحزن والبعد فالديار حزينة لفراق أهلها

(١) ديوان ابن هاني: ٢٦٩، منعج: اسم وادى، المائل: الرسم الذاهب وأثره.

كحزن الشاعر على فراقهم، فالأطلال عفت آثارها بسفك الدم وسيل المطر ثم يوجه الخطاب لدار الحبيبة (هلا كعهذك) ويتذكر الزمان الماضي حين كان الأراك كالأسرة وآثار الديار كالرياض الزاهرة وحين كان ذلك الوادى عامراً بأهله^(١). وارتبطت هذه الأماكن بما تثيره من عواطف ((بحياة الإنسان العربى ارتباطاً مصيرياً، لأنها ملازمة له ملازمة الظل، وجعلته موقناً بالصلة الأزلية التى تشد بين الإنسان وأرضه))^(٢)، لتشكل باعنا موضوعياً لموقف الشاعر الذى لا يتأتى إلا من خلال معاناة ذاتية يمتزج فيها الحدث بالإحساس والواقع بالأمل هذا الباعث الموضوعى يكون ذا قدرة تأثيرية تعبر عن تقرير إيحائى لتجربة موضوعية للتعایش بين الشاعر والمكان.

وللشاعر نفسه قصائد أخرى اتخذ فيها المكان نقطة بداية للطريق فى قول الغزل ومنها:

قفا فلأمرٍ ما سرينا وما نَسْرِي	وإلا فمشياً مثل مشى القطا الكُدري
قفا نَتَبِّينَ أين ذا البرق منهم	ومن أين تسرى الريح عاطرة النَشْرِ
لعل ثرى الوادى الذى كنت مرةً	أزورهم فيه تَضُوعٌ للسَفْرِ
وإلا فذا وادٍ يسيل بعنبرٍ	وإلا فما تدرى الركابُ ولا ندرى
أكل كناسٍ، فى الصريم تظنه	كناس الظباء الدعج والشدن العفْرِ
فهل علموا أنى أسيرَ بأرضهم	وما لى بها، غيرُ التعسفِ من خبرِ
ومن عجبٍ أنى أسائلُ عنهم	وهم بين أحناءِ الجوانحِ والصدْرِ
ولى سكن تأتى الحوادث دونه	فيبعد عن عيني ويقرب من فكرى
إذا ذكرته النفسُ جاشت لذكره	كما عثرَ الساقى بكأسٍ من الخمرِ

(١) ينظر: تبين المعانى فى شرح ديوان ابن هانى، د. زاهد على، مطبعة المعارض، مصر، ١٣٥٢هـ ٦٣٢-٦٣٣.

(٢) الشعر والتاريخ، د. نوري حمودى القيسى، دار الحرية للطباعة، بغداد، ٣٢، ١٩٨٠/٣٣.

لم يبق لي إلا حشاشة مغرم طوى نفسَ الرمضاءِ فى خلل الجمرِ
وما زلتُ ترمينى الليالى بنسبِها وأرمى الليالى بالتجلدِ والصبرِ^(١)

ابتدأ ابن هانئ هذه الأبيات بفعل الأمر (قفا) طالبا من صاحبيه الوقوف على ديار الحبيبة- ونرى من هذه المقدمة تأثير شعراء الأندلس بشعر المشاركة- فهو الأمر الذى سروا من أجله وإذا تعذر الوقوف فالمشى البطيئ المتثاقل (مشى القطا) أفضل، لأنهم وصلوا إلى الأمر المطلوب وهو ديار الأحبة إلا أن الشاعر يقف متصبرا فى التعرف على دار الحبيبة فقد غيرت الليالى معالمها وأذهبت أنوارها، ويصور لنا الحالة النفسية التى يمر بها، هذه الحالة جعلته يشرف على الهلاك فلم يبق فى جسده إلا ذلك الرمق وتكاد تقضى عليه حرارة الحزن فى صدره، فالطلل حالة وليس مجرد بقايا آثار واستنطاقها حالة إنسانية وسببه الإنسان المشتاق إلى زمن ماضى كامن فى ذاكرته.

ولابن هانئ أبيات أخرى تنبئ عن علاقة المكان وأثره فى قول الغزل حيث يقول:

قد مررنا على مغانيك تلك فرأينا فيها مشابهة منك
عارضتنا لها الخواذل أسرا بأأجراعها فلم نسلُ عنك
لا يُرغ للمها بدارك سربٌ فلقد أشبهتك إن لم تكنك
مسعدى، عُجْ فقد رأيت معاجى يوم أبكى على الديار وتبكى
بحنينٍ مرجع كحنينى وتشكُّ مُرددٍ كتشكى
فأثند تسكب الدموع كسكى ثم لا تسفك الدماء كسفكى.^(٢)

(١) ديوان ابن هانئ، ٢١٤-٢١٥، الصريم: الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر، الدعج: الواحدة دعجاء: السوداء العين، الشدن، الواحد شادن: ولد الطبقى..

(٢) ديوان ابن هانئ، ٢٦١، الأجرع: رملة مستوية لا تنبت شيئا.

أظهر لنا ابن هانئ في هذه الأبيات مدى ارتباطه بتلك الديار فعند مروره بها ثارت الشجون وتحركت العواطف والأحاسيس فكل شيء يذكر بالحبيبة حتى الضياء التي ترعى في الديار ينبغي أن تعامل معاملة خاصة بل يتمنى لها السلامة والأمن، لأنها تذكر حبيبته. وهكذا نجد أن الديار عملت على تأدية ((وظيفة خلق الجو الشعري الذي يمنح الشاعر القدرة على القول، لأنه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة تمده بالمشاعر التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحترق في نفسه من الإحساسات ويدور في ذهنه من الأفكار والحوادث))^(١).

وابن هذيل^(٢) (٣٨٩ هـ) ممن بكى على الديار، واستذكر الربع والطلل، فراح في وصفها أيما وصف، داعيا أنه وجد لذلك بوحا لمشاعره وأنفاسه، وما اكتفى بهذا البكاء والصراخ بل راح يطلب عدم اللوم على هذه المشاعر مهما كبرت، ولعل ابن حزم أشار إلى ذلك بقوله ((البكاء من علامات المحب ولكن يتفاضلون فيه، فمنهم عزيز الدمع، هامل الشؤون، تحييه عينه، وتحضره عبرته إذا شاء، ومنهم جمود العين عديم الدمع))^(٣) وبناء على هذه المقولة النقدية التي ألح إليها ابن حزم يكون بكاء ابن هذيل محمودا وطلبه عدم اللوم على هذا البكاء طلبا مشروعاً جديراً بالأخذ فلنستمع لبكائه:

لا تلمنى على البكاء بدارٍ أهلها صيِّروا السقام ضجيعي

(١) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، ١٠.

(٢) ابن هذيل: أبو بكر يحيى بن هذيل بن عبد الملك التميمي القرطبي الكفيف ولد سنة (٣٠٥ هـ) وكان من أهل العلم والأدب وأخذ عنه الرمادي وتوفي سنة (٣٨٩ هـ).

ينظر جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، للحميدي، تحقيق: إبراهيم الإياري، ط ٢، ١٩٨٩ م، / ٦١٧، بغية الملتبس في تاريخ أهل الأندلس للضبي (٥٩ هـ)، تح: إبراهيم الإياري، دار الكتاب المصري واللبناني، بيروت، ٢/ ٦٨٣، معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٢٢٦ هـ)، مطبوعات دار المأمون، القاهرة، (د.ت)، ٢/ ٣٩.

(٣) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ابن حزم الأندلسي، ضبطه بالشكل وفسر غامضه: سعيد محمد عقيل، دار الجليل، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م، ٣٤.

جعلوا لى إلى الوصال سبيلا ثم سدوا على باب الرجوع^(١)

إنها صورة ناطقة رسمت لنا تلك الديار على نحو فنى بديع لا ينبع إلا من قبل شعراء يفعلون ثم يصورون ما جاشت به قرائحهم^(٢).

وإلى هذه التجربة ذهب ابن هذيل فى نص آخر بقوله:

عرفتُ بعرف الريح أين تيمّموا	وأين استقلّ الظّاعنون وخيمّوا
خليلى ردّانى إلى جانب الحمى	فلستُ إلى غير الحمى أتيّم
أبيتُ سمير الفرقدين كأثما	وسادى قتاد أو ضجعى أرقم
وأحورَ وسنان الجفون كأنه	قضب من الرّيحان لدنّ منعم
نظرتُ إلى أجفانه أول الهوى	فأيقنتُ أنى لست منهنّ أسلم
كما أن إبراهيم أول مرّة	رأى فى الدّرارى أنه سوف يسقم ^(٣)

إنه ولع شديد بالأحبة اقترن ولعه بذلك المكان الذى سوف يقصده بعد أن عرفه بطيب الريح فالاتصال بالمرأة هو ما يطمح إليه الشاعر فيطلب التوجه إلى جانب الحمى وهذه تجربة صادقة يمكن القول إن الشاعر قد عاشها.

ويطالعنا ابن جاح^(٤) بمقطوعة شعرية ذابت فى حناياها أجمل معانى الغزل متخذاً من الأطلال طريقاً أو مسلماً لهذا الغزل فقال:

يا ناق عُوجى على الأطلال علّ بها	فهم غريبٌ يرانى كيف أبكيها
أو كيف أرفض طيبَ العيش بعدهم	أو كيف أسيل دمعى فى مغانيها

(١) شعر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي، جمع وتحقيق ودراسة محمد على شوابكه، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، ط١، ١٩٩٦م، ٩٧.

(٢) ينظر: فى الأدب الأندلسي، محمد كامل الفقى، دار الفكر العربى، ط١، ١٩٧٥م، ٧٦.

(٣) شعر يحيى بن هذيل القرطبي، ١١٩، القتاد: الشوك، أرقم: الحية..

(٤) ابن جاح البطليوسى شاعر مشهور توفى قريباً من سنة (٤٠٠ هـ) وكان يقصد الملوك بالمذائح ويطلق. ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٦٤٠، بغية الملتبس، ٢/ ٧١٨.

إِنِّي لَأَكْتُم أَشْوَاقِي وَأَسْتَرُهَا جَهْدِي وَلَكِنْ دَمَعُ الْعَيْنِ يُبْدِيهَا^(١)

أما الشريف الطليق^(٢) (ت قريبا من ٤٠٠هـ) فهو يصف لنا ارتباطه المشيمي بالرياض لما فيها من مشابة لصفات محبته فيرى في الزهر مبسمها أما نكهته فهي ريح الصبا وشاعرنا يمزج بين ذلك المكان الذي تميز بجمال طبيعي وجمال محبته فقد ((كانت الطبيعة الأندلسية ملهم الشعراء ومعينا لهم في استنباط صورهم الشعرية من تشبيهات واستعارات وكنيات، وإسباغ لغتهم الواضحة الرقيقة أحيانا والجزلة أحيانا أخرى على هذه الصورة))^(٣) حيث يقول:

ما الروض قد مُزجت به أنداءه سحراً بأطيب من شَذَا ذكراهُ
والزهر مبسمه ونكهته الصبا والورد أخضله الندى خداهُ
فلذاك أولع بالرياض لأنها أبداً تذكرني بمن أهواه^(٤)

أما الربوع الخالية فقد كان لها نصيب هي الأخرى في شعر الطليق فهذه الأماكن تعكس تجربة يائسة وتؤكد الواقع الحزين، لأنها ذات صلة بالواقع الاجتماعي، فجاءت التجربة لما تحمله من ألم وحرمان، لتعبر عن هموم الشاعر وتأملاته^(٥). فالطليق في هذه الربوع لا يجد غير ذكرياته مع المرأة ولهذا يقول في تلك الأماكن:

رَبِّعْ تَرَبُّصَ النُّجُومِ لِأَهْلِهِ ورمَاهُم رَيْبُ الزَّمَانِ فَقَرَّطِيسَا

(١) جذوة المقتبس، ٢/ ٦٤١.

(٢) أبو عبد الله مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر دخل سجن المطبق، لانتقامه بقتل أبيه بسبب جارية رباها أبوه معه ووعد بأن يزوجه إياه ثم استأثر هو بها وأطلق سراحه المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر لقب بالطليق ومكث في السجن ستة عشر عاماً، توفي قريبا من عام (٤٠٠ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٥٤٦-٥٤٨، بغية المتلمس، ٢/ ٦١٣، الحلة السيار، لابن الأبار، تع: حسين مؤنس، ط ١، ١٩٦٣م، ١/ ٢٢٠.

(٣) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، ٢١٤.

(٤) مع شعراء الأندلس والمتنبى سير ودراسات، أميليو غرسيه غومت، ترجمة: د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٨م، ٧٧.

(٥) ينظر: المراثة الغزلية، عناد غزوان، مط الزهراء، بغداد، ١٩٧٤م، ٢.

فكأنَّه ما تقادمَ عهدُهُ ربعُ امرئِ القيسِ القديمِ بعسعا^(١)

فالشريف كان لماحا إلى هذه الأمكنة وكانت تجربته معروفة من حيث الشجن والبكاء، فهي تذكرنا بتلك التجربة التي عاشها الأمير المخلوع والباكي الغريب امرؤ القيس فالشريف وفق في استنطاقه لهذه التجربة من ناحيتين الأولى فنية ثقافية تعود إلى تجربته الأدبية باستيحاء تجربة الشاعر الجاهلي واستنطاقه والأخرى واقعية معاشة عندما جلب كل هذه الأمكنة والأطلال والربوع، لتحاكى تلك التجربة الفنية وتمائلها الدلالى. وقال أيضاً:

فَبَقِيْتُ فى العرصات وحدى بعدهم حيران بين معاهد ما تُعْهَدُ
فكأنهنَّ ديارُ مىٍّ إذْ خلتُ وكأننى غيلان فيها يُنْشَدُ^(٢)

أما في هذا النص فقد تحول الشاعر في ثقافته ليضع أمامنا حكاية ذى الرمة مع مي^(٣)، وهنا يبرع الشاعر الأندلسى الطليق في استنطاق الربوع التى جاءت في شعره لمضامين هذه الحكاية التراثية ولا سيما في البيت الثانى عندما وصف دياره بأنها ديار مى وأن غيلان دخلها وبدأ ينشد فيها، لأن هذا الأخير لا ينشد كأي منشد إذ هو الخبير بموقع الكلام كما أنه المعروف بتجربته الغرامية التى ظل ينشد لمى وديارها وطوال حياته، وعلى أية حال شاعرنا الطليق شاعر مثقف أخذ بأسباب التراث الأدبى وأحسن استخدامه؛ فهو يبكى أطلال امرئ القيس وأحاديث ذى الرمة وهذه عناصر وفرت في شعره إضاءة أدبية تركت أثرها المتميز على شعره كما أن المكان بقى الجامع الوحيد لأطلال امرئ القيس وأحاديث ذى الرمة ولديار الشريف.

إن ذكر الشعراء لهذه الأماكن لم يكن اعتباطا وإنما جاء وفق مطالب ذاتية

(١) مع شعراء الأندلس، والمتنبى، ٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ٨٠.

(٣) ينظر: ذو الرمة شمولية الرؤية وبراعة التصوير، الدكتور خالد ناجى السامرائى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٢م، ٢٠.

واجتماعية ((من الناحية الذاتية نرى أن الشاعر قد وجد من الوقوف على الأطلال
 منطلقاً يعبر من خلاله عن تجربته الوجودية في مواجهة الزمان والمكان ومن ناحية
 الواقع نرى أن الشاعر يعبر من خلال هذه التجربة عن ارتباطه بقومه وأرضه التي
 عاش عليها معهم.. وتذكر الأهل والأحباب الظاعنين عنها)) الرمادي^(١) فعبّر^(٢)
 (٤٠٣ هـ) عن تلك الأماكن بقوله:

وقفتُ على الدار الخلاء كأننى وقفتُ على قلبٍ من الصبر بلقع
رميتُ جمار الدمع فى موقفٍ النوى وقد طفتُ أسباعاً برسم وأربع^(٣)

فهو وقف على تلك الدار وقلبه خال من الصبر، ويرمى حار الدموع، لأنها
 خالية من الأحباب وقوة هذه العلاقة بين الشاعر من جهة والمرأة والمكان من جهة
 أخرى، متأتية من إقامة الحبيبة وما ترتب عليه أثناء الإقامة من ذكريات أصبحت
 بعد الرحيل وقوداً لعاطفة الشاعر.

لقد فجرت تلك الأماكن الحزن والأسى فى قلوب الشعراء فأنشدوا فيها شعراً
 يفيض عذوبة وجمالاً، وراح القسم الآخر يرى فى تلك الأماكن ما يطفئ نار الأسى
 والحزن وهذا ما ذهب إليه الأمير عبد الرحمن بن هشام^(٤) حين قال:

لقد طال صوم الحب عنك فما الذى يضرك منه أن تكونى له فطراً

(١) الإنسان والزمان فى الشعر الجاهلى، حسنى عبد الجليل يوسف، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨م،
 ١٣٠.

(٢) أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى، شاعر أهل الأندلس المشهور وسمى بعتنى الغرب وكان
 شاعر الحكم المستنصر وهو شاعر مكثّر، سريع القول، توفى سنة (٤٠٣ هـ). ينظر ترجمته فى : الصلة
 لابن بشكوال، ٩٦٩/٣، المعجب، للمراكشى، وضع حواشيه: خليل عمران، ط١، ١٩٩٨م، ١٩-
 ٢٠.

(٣) شعر الرمادى، جمعه وقدم له: ماهر زهير جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١،
 ١٩٨٠م، ٨٣.

(٤) عبد الرحمن بن هشام المستظهر هو أبو المطرف عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بويج بالخلافة
 سنة (٤١٤ هـ) لقب بالمستظهر وكان مولده سنة (٣٩٢ هـ) دامت خلافته (٤٧) يوماً وقتل سنة (٤١٤
 هـ). ينظر: جذوة المقتبس ٥٦/١، البيان المغرب، ١٣٥/٣، الحلة السراء، ١٢/٢.

ولانى لأستشفى بمرى بداركم هدوءاً وأستسقى لساكنها القطرا
وألصق أحشائي ببرد ترابها لأطفئ من نار الأسى بكم جمراً^(١)

فهو يستشفى بمروره بتلك الدار التى يجد فيها ما لا يجده فى غيرها فيلصق
أحشائه الحرى الملتهبة بها لعله يجد ببرد ترابها ما يطفى جمر الحزن والألم.

وعلق الدكتور إبراهيم بيضون على هذه القصيدة بأنها ((تندرج فى مصاف
القصائد الرقيقة المنسوبة إلى أمراء بنى أمية فى الأندلس وهى تقترب فى سماتها من
القصيدة المشرقية المتميزة بقوة الأسلوب ومتانة اللغة التى تبلغ أحيانا حد
التقعر))^(٢).

فعبّر الشعراء عن أحاسيسهم عبر تلك الأماكن تجاه المرأة التى ((شغلت وتشغل
حياة الشاعر فى كل عصر من العصور فهى ليست موضوع غرامه ومسرح خياله
فحسب بل إنها ذات أثر كبير فى نفسيته وتصرفاته كما أنها الدافع الأول فى إثارة
شعوره وعاطفته))^(٣).

ويطالعنا ابن دراج القسطلي (٤٢١ هـ) فى مقدمة غزلية ضمنها أروع معانى
الغزل ووصف الديار وهى مقدمة لقصيدة قيلت فى مديح المنصور حيث قال:

أضاء لها فجر النهى فناها	عن الدنف المضى بحر هواها
وظللها صبح جلا ليلة الدجى	وقد كان يهديها إلى دجاها
ويشفع لى منها إلى الوصل مفرق	يهلّ إليه حليها وحلاها
فيا للشباب الغض أنهج برده	وبالرياض اللهو جف سفاها

.....

.....

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، ٥٦/١، وينظر: الحلة السراء، ١٢/٢.
(٢) الأمراء الأمويون الشعراء فى الأندلس دراسة فى أدب السلطة، تأليف، الدكتور إبراهيم بيضون،
دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ٢٠٧.
(٣) المطلع التقليدى فى القصيدة العربية، ١١٧.

سلامٌ على شرخ الشباب مرددٌ
وبالديار اللهو أقوت رسومها
وخبر عنها سحق أثلم خاشع
فيا حبذا تلك الرسوم وحبذا
تهادى المها الوحشى فى عرصاتها
ومبتسم الأحباب فى جنباتها
دعوت لها سقيا الحيا ودعا الهوى
وآها لوصل الغانيات وآها
ومحّت مغانيها وصمّ صداها
كهالة بدرٍ بشرت بحباها
نوافح تهديدها إلى صباها
يذكرنيه أنسات مهاها
أقاح كساهنّ الربيع رباها
ويَرْحُ الهوى دمعى لها فسقاها^(١)

من خلال هذه المقدمة الغزلية والتي قرن فيها ابن دراج ذكر المرأة والتغزل بها بأمّاكن الانتماء (ديار اللهو والرسوم والعرصات)، ثم شوق للمكان هذا الشوق يبين مدى الارتباط النفسى بين ذات الشاعر والمكان فالذات تناجى الديار وتصف لنا المكان بأسلوب حزين وتعلن عن ألمها ولوعة الفراق ولا دواء لهذا الألم غير الدعاء لتلك الديار بالسقيا، وجاءت هذه القصيدة على قافية الهاء المطلقة، لتوافق غرض الشاعر وعلق الدكتور أحمد هيكل بقوله ((كانت تلك القصيدة مبعث حسد للقسطلى ومثار تشكيك الوشاة فيه فقد خاف كثيرون ممن حول المنصور من شعراء وأدباء وأن يؤثر هذا الفتى الوافد من قسطلة على مكانتهم))^(٢).

ونلمح هذه الفاعلية للمكان فى قول الغزل عند ابن شهيد (٤٢٦ هـ) فى قوله:

(١) ديوان ابن دراج القسطلى، حققه وعلق عليه وقدم له: الدكتور محمود على مكى، منشورات المكتب الإسلامى بدمشق، ط ١، ١٩٦١م، ١٠-١١، الشحق: هو الثوب البالى الخلق، الأثلم: كالأنثب التراب والحجارة.

(٢) (الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكل، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩م، ٣٠٥.

خَلِيلِي عَوْجًا بَارِكَ اللَّهُ فِيكَمَا
وَلَا تَمْنَعَانِي أَنْ أَجُودَ بِأَدَمَعٍ
فَأَقْسَمَ مَا شِئْتُ الْغَدَاةَ وَقُودَهَا
مِيَادِينَ أَفْرَاسِ الصَّبَا وَمِرَاتِعٍ
فَلَمْ أَرِ أَسْرَابًا كَأَسْرَابِهَا الدَّمَى
وَلَا كَضَلَالٍ كَانَ أَهْدَى لَصِبُوتِي
وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقَ إِلَّا حَمَائِمٌ
تَغْنُ فَلَا يَبْعُدُ بَذَى الْأَيْلِكِ عَاشِقٌ
عَجِبْتُ لِنَفْسِي كَيْفَ مُلْكُهَا الْهَوَى

بِدَارَتِهَا الْأَوَّلَى تُحْيِي فَنَاءَهَا
حَوَاهَا الْجَوَى لَمَّا نَظَرْتُ جِوَاءَهَا
وَقَدْ شِئْتُ مَا رَابَ الْحِمَى وَأَسَاءَهَا
رَتَعْتُ بِهَا حَتَّى أَلْفَتُ ظِبَاءَهَا
وَلَا ذَنْبَ مِثْلِي قَدْ رَعَى ثُمَّ شَاءَهَا
لِيَالِي يَهْدِينِي الْغَرَامَ خِبَاءَهَا
بَكَيْتُ لَهَا لَمَّا سَمِعْتُ بُكَاءَهَا
بَكَى بَيْنَ لَيْلَى فَاسْتَحَثَّ غَنَاءَهَا
وَكَيْفَ اسْتَفْزَغَ الْغَانِيَاتُ إِبَاءَهَا^(١)

في هذه الأبيات ابتدأ ابن شهيد بكلمة (خليلي) ونلمح فيها تأثره بالشعراء المشاركة فقد طلب من صاحبيه الإقامة بدارتهما الأولى وطلب منها عدم منعه من البكاء لما رآها وتذكر أيام الصبا وما أثار هذا الشوق إلا نوح الحمام، فبكى لبكائه لكن هناك فرق بين البكائين. ثم يتعجب من نفسه كيف امتلكه الهوى بهذه الصورة حتى نسى كل شيء، وهام في حبها وحب ديارها.

ويذهب ابن شهيد إلى هذه المعاني في قصيدة أخرى، واصفا فيها الوقوف على دار الأحبة متذكرا أيام الصبا منشئا علاقة حميمة بين المرأة وذلك المكان، الذي ظل ملجأ لذات الشاعر ينتقى من مكوناته ومفرداته ما يناسبها وجدانيا، ليكون تركيبا شعريا يتلاءم مع نفسه الحزينة فقال:

هَاتِيكَ دَارَهُمْ فَقِفْ بِمَا غَانَهَا
تَجِدِ الدَّمْعُ تَجِدُ فِي هَمَلَانِهَا

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، راجعه: د. محمود علي مكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ٨٢-٨٣.

عُجْنَا الرُّكَّابَ بِهَا فَهَيَّجَ وَجَدَنَا دَمْنُ ذَعْرِنَ السَّرْبِ مِنْ إِدْمَانِهَا
دَارَ عَهْدَتْ بِهَا الصَّبَا لِي دَوْحَةً أَتَفِيأُ الْفَرَحَاتِ مِنْ أَفْنَانِهَا
أَرَعَى عَلَى بَقَرِ الْأَنَيسِ بِجَوْهَا وَأَحْكَمَ الصَّبَوَاتِ فِي غَزَلَانِهَا^(١)

حيث ارتبط ابن شهيد بتلك الدار، لإعادة صورة الماضي البعيد، فوقفت الذات عند تلك الأمكنة حزينة متألمة، وجادت العيون بدموع، جسدت ألم الفراق وظلت تمدّه بالمشاعر التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من الأحاسيس، وكل هذا يكشف لنا مدى الارتباط النفسى بين الشاعر والمكان.

وخلاصة القول أن المكان بقى لدى شعراء الأندلس مستودعاً يلجأ إليه الشعراء في حالة فقدان الحبيبة فكلما مر الشعراء بتلك الديار ألهبت مشاعرهم، وأثارت شجونهم، وحركت أحاسيسهم، فتارة تذكر بالفناء والخراب لما آلت إليه تلك الأماكن، وتارة تذكر بالحب وتمدّه بالسعادة فهي الرابط الوحيد الباقي بعد فراق الأحبة بل وأصبح طريقاً للحديث عن ذكريات الشاعر مع المرأة وكل هذه الشواهد التي مرت بنا نلمس فيها عاطفة صادقة بثتها تلك الذات متفاعلة مع المكان.

(١) ديوان ابن شهيد، ١٦٥.

المبحث الثانى

المكان والمديح

يعد المديح من الأغراض الشعرية التى لها حضور دائم فى الشعر العربى ويمكن القول إنه التغنى بالفضائل من كرم وعفة وسماحة وقوة وشجاعة إلى غير ذلك من السجاياء وقد ((رافق قيثاره الشعر العربى منذ وجودها الأول فكان وترا مرنان الصوت فيها))^(١).

والمديح فى الشعر العربى مرده إلى أمرين الأول: أن يكون الدافع وراء المديح هو تحقيق منافع مادية ودينية أى دافع تكسبى، وهذا النوع من الشعر لا يصدر عن عاطفة صادقة، أما الأمر الآخر: أن يكون الدافع وراء المديح هو الإعجاب بالمدح فيشيد الشاعر بما أثار إعجابه من صفات، ويكون صادرا عن محبة سرت فى الدم، وود تغلغل فى أعماقه، فأنطقه بالصدق والبراءة والإخلاص.

والمديح فى الشعر الأندلسى لا يكاد يخرج عن هذين الغرضين ولا سيما فى هذه الحقبة (٩٢هـ-٤٢٢هـ) ومما ساعد على ازدهار هذا الغرض أن أمراء الأندلس قد فتحوا الأبواب على مصراعيها أمام الشعراء فأخذوا ((يقطعون الأندلس طولا وعرضا، ينتجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلوات ويحضرون مجالس أصحاب الأمر وتدرج أسماؤهم فى سجلات الدواوين وتقرر لهم الأرزاق وتخلع عليهم وظائف التدريس))^(٢).

١١) فن المديح وتطوره فى الشعر العربى، أحمد أبو حاقه، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط١، ١٩٦٢م، ١٤.

٢) الشعر الأندلسى، غارسية غومس، ترجمة: د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٦م، ٤٦.

ويبدو أن أمراء الأندلس كانوا قد اتخذوا ((من أفواه الشعراء أبواق دعاية))^(١) فظهرت القصيدة الأندلسية بنكهتها العربية، والسبب في ذلك هو أن الشعر لم يكن ليخرج من إطاره العام الذي نهجه الأقدمون.

ويطالعنا في هذه الحقبة جملة من شعراء المديح وعلى رأسهم ابن هانئ وابن دراج وهذا الأخير أكثر من المديح بصورة ملفتة للنظر فجاء أغلب ديوانه في هذا الغرض. وهذا مرجعه إلى البيئة التي عاش فيها فقد عاش في كنف الأمراء متنولا العطايا والهدايا. وقد ساعد على جذب الشعراء إلى حواضر الأمراء كونهم -أى الأمراء- في الغالب من الشعراء، فهذا الداخل^(٢) يصفه الحميدى بقوله: ((كان من أهل العلم.. وله أدب وشعر))^(٣) أما عبد الرحمن الناصر فقد كان ((أندى الناس كفاً على الشعراء))^(٤).

واتخذ شعراء الأندلس من المكان وسيلة للوصول إلى الممدوح فأصبح أشبه بالينبوع يستمد منه الشعراء مادتهم وظل ((وسيلة الشعراء للتعبير عن قيم الوجود الإنسانى والمثل العليا في المجتمع))^(٥) وجسد المكان بدلالاته ورموزه مادة ذات شأن لدى المادحين يجدون فيه ما يطمئن صدر الممدوح وما يطبع عليه من شموخ وكبرياء فوصف أماكن الرحلة وبيان أهوالها ومخاطرها وما قطع من المفارز والأماكن الخالية القصد منه بلوغ الممدوح والتقرب إليه.

وكان شعراء الأندلس يذكرون من الأماكن ما يتلاءم مع مقام الممدوح، وذلك لأن الشاعر ((عندما يمدح لا يحاول أن يرسم صورة الممدوح وإنما يحاول أن يرسم

(١) اتجاهات الشعر الأندلسى إلى نهاية القرن الثالث الهجرى، ١٦٤.

(٢) أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك لقب بالداخل وخلع أبو جعفر المنصور عليه لقب (صقر قریش) كانت ولادته عام ١١٣ هـ وكان راجع الحلم (ت: ١٧٢ هـ). ينظر: بغية الملتبس، ٣٢/١.

(٣) جذوة المقتبس، ٣٧/١.

(٤) الأدب العربى فى الأندلس، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ٢، ١٩٧٦ م، ٧٩.

(٥) المكان فى الشعر العربى قبل الإسلام، ٣٢٧.

صورة شخصية تتمثل فيها كل الصفات التي يقدرها المجتمع، شخصية مثالية قد تكون بعيدة كل البعد عن الممدوح إلا أن الشاعر يحاول طبعاً أن يربطها بشخصيته^(١).

والشاعر عندما يمدح يبدأ بذكر الأماكن الخالية والغريبة وصولاً إلى الأماكن الأليفة التي يحلم الشاعر بالوصول إليها وهي أماكن الممدوح أو يذكر الأماكن التي لها وقع خاص في نفس الممدوح، لأن ((لطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح))^(٢) ومن هذا المنطلق زواج الشعراء بين المكان والمديح.

أما عن المعانى والألفاظ التي طرقها شعراء الأندلس في هذه الحقبة الزمنية فإنها ليست بمعان جديدة وإنما هي معان وألفاظ تكاد تكون مشرقية ولا سيما في بداية الفتح ((ولكن الأندلسيين استطاعوا أن يعرضوا ما قلدوا في ثوب جديد وتأنقوا في رسمه وتلوينه حتى إنك لتنسى أصله وتحسبه معنى جديداً وعرضاً طريفاً، إنهم يأخذونهم بالتحوير أو النقص أو الزيادة أو الشرح حتى تحس شخصيتهم فيه واضحة جلية ولا يسعك إلا أن تعترف لهم بالتجديد والابتكار))^(٣).

ويمكن الولوج في هذا المبحث من خلال شقين.

الأول: المكان والرحلة ودلالته في قصيدة المديح.

الثاني: الأمكنة الدينية والطبيعية ودلالاتها في قصيدة المديح.

أولاً: المكان والرحلة ودلالته في قصيدة المديح.

إن وصف الرحلة في قصيدة المديح هو تعبير عن انفعال فنى مبدع، وانفعال

(١) إشبيلية في القرن الخامس، د. صلاح خالص، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ٨٨-٨٩.

(٢) العمدة، ٢١٧/١

(٣) دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٣م، ٧٢.

نفسى مفتعل، فيلجأ الشاعر إلى تحديد المكان إذ لابد أن تتضمن الرحلة الانتقال والحركة وتبدأ من مكان وتنتهى بالمكان المقصود. وتنطلق رؤية الذات للمكان في الرحلة من كونه مكانا للخطر والمصاعب الذى تجتازه الذات بإرادة قوية قاصدة الممدوح.

والرحلة ((تعبير أدبي بواسطة اللغة عن انتقال يقوم به الإنسان ماديا أو ذهنيا عبر إبعاد الزمان والمكان والخيال انتقالا حقيقيا أو متخيلا مع ما يصاحب هذا الانتقال من متغيرات شعورية ووجدانية في ذات الإنسان))^(١).

وما يهمننا في هذا المجال هو وصف الشاعر للمكان أثناء الرحلة ثم الدخول إلى المديح ويصاحب هذه الرحلة دوافع نفسية وإنسانية ووجهات نظر فلسفية وجدانية، وأول من يطالعنا في هذا الشيء هو عباس بن ناصح^(٢) (توفي بعد ٢٣٠هـ) حين قصد الحكم الربضي واصفا رحلته عندما استغاثت امرأة في وادى الحجارة ولهذا يقول:

أراعى نجوماً ما يردن تغيّراً	تلملتُ فى وادى الحجارة مسهدا
تسيرُ بهم سارياً ومهجّراً	إليك أبا العاصى نضيتُ مطيتى
فإنك أهلٌ أن تغيث وتنصراً ^(٣)	تدارك نساء العالمين بنصرة

فالشاعر قد وصف لنا صورة في غاية الدقة تصور الحالة النفسية التى قضى فيها

(١) الرحلة في أدب أبى العلاء المعرى، ماجد حميد فرج (رسالة ماجستير)، كلية التربية الجامعة المستنصرية، ١٩٩٩م، ٤؛ وينظر: الطبعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلى، بهيج مجيد القنطار، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ٤١-٤٢.

(٢) أبو العلاء عباس بن ناصح الثقفى من أهل الجزيرة الخضراء رحل مع أبيه إلى مصر نشأ بها وتردد إلى الحجاز ثم العراق طالبا العلم ثم رحل بعد ذلك إلى الأندلس وكان عالما وشاعرا ولدى الخلفاء. ينظر: تاريخ علماء الأندلس (للفرضي)، ٢/ ٥٠٤؛ المغرب في حل المغرب، حققه: شوقي ضيف، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١/ ٣٢٤.

(٣) نفع الطيب، ١/ ٣٤٣.

ليله ساهرا يرقب النجوم في انتظار الصباح ليجد السير إلى الحكم وقد أتعب مطيته من السير حتى هزلت بسبب رحلته ومسيرته في آخر الليل ووقت الظهيرة، ليصل إلى الممدوح طالبا منه نصرة أهل وادى الحجارة، والملاحظ أن هذه الأبيات قد جاءت ((بعاطفة شعورية فاقت بها نفس الشاعر فترجم أفكاره وأحاسيسه إلى أصوات عالية النبرة تنفيساً عن الشعور الجياش في نفسه))^(١).

وهذه حسانة التميمية^(٢) تصف بمقطوعة شعرية رحلتها وما آلت إليه من مصاعب ومتاعب قاصدة الأمير عبد الرحمن الأوسط قائلة:

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى	على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعى إنه خير جابر	ويمنعنى من ذى الظلامة جابر
فإنى وأيتامى بقبضة كفه	كذى ريش أضحى فى مخالف كاسر
جدير لمثلنى أن يقال مروعة	لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاء الحيا لو كان حياً لما اعتدى	على زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطته يميناه جابر	لقد سام بالأملاك إحدى الكبائر ^(٣)

في هذا النص وصف للمكان الصعب ومخاطره، ذلك المكان الخالى القفر الحار فهو يلج بالحرارة لبعد المكان، إلا أن فى نفسها أمل أن يجبر حالها وما آلت إليه هى وأيتامها لحد ما، وقد روعت لفقدان من كان يرهاها فصارت كطير

(١) اتجاهات الشعر الأندلسى إلى نهاية القرن الثالث الهجرى، ٦١.

(٢) حسانة بنت أبى الحسين الشاعر من أهل البيرة وهى من أولى الشواعر اللواتى اشتهرن بالأندلس تعلمت ودرست فنشأت نشأة طهر وعفاف توفى والدها ولجأت إلى الأمير الحكم ابن هشام لمساعدتها على صروف الدهر، توفيت فى القرن الثالث الهجرى. ينظر: نفح الطيب، ٤/ ١٦٧؛ تاريخ الفكر الأندلسى، تأليف: باليتشيا، أنخل كونثال، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥م، ٥٧-٥٨.

(٣) نفح الطيب، ٤/ ١٦٨.

وقد انقضت عليه الجوارح، وسبب انتخابها لهذا المكان المتصل بالصعوبة،
تعبّر عن معاناة شذات الحياة منتهية بشكوى النفس وحالها. وقد استهلّت
الشاعرة أبياتها ((بالمعنى التقليدي على عادة الشعراء القدماء حين صورت
نفسها بعيدة وقد شدت الرحال في اتجاه الممدوح ولكن على الرغم من ذلك يبقى
هذا المعنى جميلاً، لأنه يعبر بصدق عن واقع تلك المرأة الجريحة التي كانت تعاني
الأميرين))^(١).

وتأتى الرحلة في شعر ابن هاني على شاكلة رحلته الظعن ولا سيما أن شاعرنا
عرف بالتقليد والاتباع والسير على نهج الأقدمين وأظن أنى استشهدت بنصوص
وفيرة في مبحث المكان والغزل دلت بإنصاف على سير ابن هاني في نهج الأقدمين في
النظم تركيباً ودلالة وألفاظاً والآن لنقف على رحلته حين قال:

أيمسبُ سارى الليلةَ البدرَ واحداً	وفى كليلَ الأظعانِ ثانٍ وثالثُ
سرينَ بقضيبِ البان وهى موائدُ	تشئى وكُشبِ الرُّمل وهى عثاعثُ
أريدُ لهذا الشمل جمعاً كعهدنا	وتأبى خطوبُ للنزوى وحوادثُ
عَبِثْتُ زماناً بالليالى وصرفها	فها هى بى لو تعلمون عواثُ
لئن كان عشقُ النفس للنفس قاتلاً	فإنى عن حتفى بكفى باحثُ
وإن كان عمرُ المرء مثل سَماحه	فإن أميرُ الزابِ للأرضِ وارثُ ^(٢)

هذه الأبيات هى جزء من قصيدة مدح بها جعفر بن على الأندلسي^(٣). وقد اتخذ

(١) الشعر النسوى الأندلسى أغراضه وخصائصه الفنية، سعد بو فلاقة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م، ٤٥.

(٢) ديوان ابن هاني، ٢٠٤-٢٠٥، العثاعث: الواحد عثعث: الكثيب السهل.

(٣) جعفر بن على بن حمدون كان أبوه على بن حمدون بن سهاك بن مسعود الجذامي يعرف بابن الأندلس
وفي سنة ٣٦٥هـ خرج من قرطبة جعفر ويحيى (أخوه) قاتدين إلى الغرب من العدو وبين أيديهما
الألوية والطبول مزيلين للوزير يحيى بن هشام. ينظر: البيان المغرب، ٢/ ٢٤٩، تبين المعانى، المقدمة،
٤٨.

ابن هانئ من وصف هذه الرحلة وما تضمنت سبيلاً للوصول إلى الممدوح، إذ شبه الجوارى بالدور وأشرك الشاعر الليل في عمله فوصف هذه الرحلة في تلك الليلة، ونزول حوادث الزمان به بعد أن كان لا يحمه حوادثه فوصفه لهذه المعاناة القصد منه الخروج إلى الممدوح، إذن جمع في هذه الأبيات بين الغزل ووصف الرحلة-ليلاً- لبلوغ الممدوح.

ولا يخرج ابن دراج القسطل عن هذا الأسلوب والنمط الشعري المؤثر في ممدوحه فيقول:

لَوَاغِباً جُئِنَ الْفَلَاحُ	لَا تَعْسَفَنَّ الدُّجَى بِأَذْلَةٍ
فَقَضْتُ مَدَامِعُهَا بِنُوءِ الْغَارِبِ	وَكَوَاكِبُ نَاءَتْ بِغَرِبَتِهَا النَّوَى
لَمْ يَسْلُهُ طَمَعٌ بِفَرَحَةِ آيِبِ	مِنْ كُلِّ مَفْجُوعٍ بِتَرْحِهِ رَاحِلِ
مِنْ ظَنِّهِ وَصَدَقَتْهُ عَنْ كَاذِبِ	كَذَّبَتْهُ بَارِقَةُ الْمُنَى عَنْ صَادِقِ
وَسَرَى إِلَيْهَا الْهَمُّ ضَرْبَةً لَازِبِ	ظُغْنٌ سَرِينُ اللَّيْلِ ضَرْبَةً لَازِمِ
فَوْقَ الْمَاجِرِ كُلِّ قَلْبٍ ذَائِبِ	جَمُدَتْ عَلَيْهِنَ الْقُلُوبُ فَأَسْبَلَتْ
عَنْ أَعْيُنٍ بِدُمَائِهِنَّ سَوَاكِبِ	وَتَخَازَرَتْ عَنْهَا الْعَيُونُ فَأَبْرَزَتْ
وَصَلَتْ بِهِنَ سَبَاسِبُ سَبَاسِبِ	وَتَقَطَعَتْ أَسْبَابُهُنَّ لَطِيَّةِ
نَأَتْ الْبِلَادُ حُلُلْنَ غَيْرَ غَرَائِبِ	يَطْلُبْنَ شَأْوَ غَرَائِبِ لِي كَلَمَا
فِيهَا خُلُودَ أَهْلَةٍ وَكَوَاكِبِ ^(١)	لَحَقَتْ بِأَسْبَابِ السَّمَاءِ فَأَعْطِيَتْ

حرص ابن دراج في الأبيات على الأسلوب الشعري القديم وهو وصف الرحلة ثم التخلص إلى الممدوح فذكر ولوجه في الصحراء المقفرة وسريان الظعن ليلاً وقلق

(١) ديوان ابن دراج القسطل، ١٦٧-١٦٨.

الشاعر وخوفه على السائرين في ذلك المكان. وهذا الوصف للمكان وخوفه من مصاعبه يحمل معنى العزم والهمة للاتجاه صوب الممدوح.

ثانياً: الأمكنة الدينية والطبيعية ودلالاتهما في قصيدة المديح.

اتصف المكان بعدة صفات ودلالات كثيرة واقتن بأحداث كثيرة، لذلك شغل العديد من المفكرين والفلاسفة والأدباء^(١) حتى ((أصبح فيما بعد مرآة تعكس الصدى النفسى للشخصية حيث يتماثل - دلالة وتركيباً - مع ما يحتمل في أعماقها))^(٢)، وارتبط بالعمل الأدبي أشد ارتباط فهو يفقد خصوصيته، العمل الأدبي، عندما يفقد المكانية وبالتالي يفقد أصالته^(٣).

إن الشاعر عندما يريد مدح شخص ما فإنه يلجأ إلى أجمل الأساليب المتمثلة بالإيضاح والمعاني الجزلة والألفاظ النقية والإشادة بالممدوح في أجمل الصفات^(٤)، واللجوء إلى ذكر أفضل الأماكن التي تليق بمقام الممدوح، وليس هناك أفضل من المكان الدينى والطبيعى على حد سواء في اقترانه بقصائد المديح. فيبدأ الشاعر بالمزج بين تلك الأماكن وشخصية الممدوح كأن تكون تلك الديار متشوقة إليه أو تزهر بزهره وفقاً لوصف الشاعر، لأن ((إثارة الشعور والإحساس مقدمة في الشعر على إثارة الفكرة))^(٥).

أما المكان الطبيعي فيتجسد في مظاهر تكوينه التي ((تتسم بالسعة والامتداد والارتفاع والانبساط والشدة))^(٦).

(١) ينظر: مدخل جديد إلى الفلسفة، ١٩٦، فن الشعر، أرسطو طالس، تح: عبد الرحمن بدوى، بيروت، ١٩٧٣م، ٢٠، المعجم الفلسفى، جميل حبيب، بيروت، ط ١، ١٩٧٣، ٤١٢.

(٢) هامشية المكان في رواية غانم الدباغ، د. إبراهيم جندارى، مع آداب الرافدين، ع ٢٣، ١٩٩٢م، ٢٠٥.

(٣) ينظر: جاليات المكان، جاستون باشلار، ٦٠.

(٤) ينظر: العمدة، ١٢٨/٢.

(٥) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، ١٩٧٣م، ٣٧٦.

(٦) الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي، ١٥٧.

وأول من يطالعنا من شعراء الأندلس في إضفاء دلالات المكان الطبيعي على الممدوح هو ابن عبد ربه (ت: ٣٢٨هـ) بل وربما جعل من صفات الممدوح تتجاوز صفات ذلك المكان وقد زأوج بين البحر والقمر والممدوح لما لهذين المكانين من دلالة بارزة ومعروفة لدى أغلب الشعراء. فالبحر معروف عنه بصفات الجود والاتساع أما القمر فهو الآخر وصف بالجمال والعلو، وعلى الرغم من هذه الصفات الجميلة فإن ابن عبد ربه يرى في ممدوحه أكثر من هذا الشيء فهو القائل:

فكرتُ فيكَ أبحرَ أنتَ أم قمرٌ فقد تحيّرَ فكري بينَ هذينِ
إن قلتُ: بحرًا وجدتُ البحرَ منحسرًا وبحرُ جُودك ممتدُّ العبابينِ
أو قلتُ: بدرًا رأيتُ البدرَ منتقصًا فقلتُ: شتانَ ما بينَ البديرينِ^(١)

فهو يصف لنا شدة تحيره في وصف ممدوحه فإن قرنه بالبحر ذلك المكان المتسع وجد البحر قاصرا عن بحر جوده، وإن قرنه بالبدر وجد البدر ينقص شيئا فشيئا حتى يصل إلى المحاق لا يرتقى إلى صفات ممدوحه فالبون بينهما كبير.

وعلى الرغم من هذه المبالغة في وصف الممدوح الذي كان كريما مع الشاعر إلا أننا نلمح فيها أسلوبا رشيقا وموسيقى عذبة رفعت من القيمة الفنية لهذه الأبيات^(٢). وربما كان وراء هذه المبالغة في إضفاء الصفات على الممدوح ارتباط خيال الشاعر ((ارتباطاً كبيراً بالعواطف ولهذا كلما كانت العاطفة قوية احتاجت إلى خيال قوى يعين على إظهار روعتها ويزيد من درجة تأثيرها))^(٣).

وكرر ابن عبد ربه معاني قصيدته الأولى مرة أخرى لوجود الأهمية لممدوحه، ولأنه أعز بشائله وأخلاقه فراح يخلد هاتيك الصفات والشبائل بما عهد على الشعر

(١) ديوان ابن عبد ربه، ١٦٨.

(٢) ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ١٣٧.

(٣) في النقد الأدبي، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٢م، ١١٨.

من تمتعه بسمات الخلود، وبقائه ينشد على مر الأزمان والأماكن واختلاف
الممدوحين والشعراء، يقول ابن عبد ربه:

مكارمٌ يقصُرُ عنها الوصفُ	وغُرّةٌ يحسُرُ عنها الطرفُ فلا
وشيمةٌ كالصابِ أو كالماءِ	وهمةٌ ترقى إلى السماءِ
وانظر إلى الرفيع من بنيانه	يريك بدعاً من عظيم شأنه
لو خايلَ البحرُ ندى يديه	إذا لجأتُ عُفائهُ إليه
ولا ستحي من بعد أن يفيضاً ^(١)	لفاض أو لكاد أن يفيضاً

في هذه الأبيات يمدح الخليفة الناصر ويضفي عليه دلالات المكان المتسع
والعالي المتمثل بالماء والسماء فمكارمه يتعذر عنها الوصف وشيمته كالماء أما همته
فهى عالية علو السماء أما البحر فلو كايل ندى يديه لفاض من جود يديه ونرى من
هذه الأبيات تحرر الشاعر من القافية من أجل اتساع المعنى والقصد فلذلك نرى في
هذه الأبيات رقة الألفاظ وصفاءها كصفاء الماء.

أما المكان الدينى فى قصيدة المديح فلنلمس أثره واضحاً فى أشعار ابن هانئ
وأكثر ما لجأ إليه هى الأماكن المقدسة والتى ضمنها فى أشعاره المدحية وأبرز هذه
الأماكن هى مكة وشعابها فضلاً عن أماكن مقدسة أخرى عكس دلالات تلك
الأمكنة على الممدوح مضيها عليه هالة دينية وهو القائل:

وجدوده لجودِها شَفِعاء	هذا الشفيعُ لأمةٍ يأتى بها
وبلاده إن عُذَّتِ الأمناءُ	هذا أمينُ الله بين عبادِهِ
وشعابها والرُّكنُ والبطحاءُ	هذا الذى عطفَتْ عليه مَكَّةُ
تدفقُ المتبلِّجُ الوضْءُ	هذا الأغرُّ الأزهرُ المتألفُ المـ

(١) ديوان ابن عبد ربه، ١٨٣.

فعليه من سيمًا النبي دلالةٌ وعليه من نورِ الإله بهاءٌ
ورثَ المقيم بيثرب فالنبر الأ على له والترعة العلياء^(١)

هذه الأبيات هي جزء من قصيدة مدح بها المعز لدين الله فذكر عدداً من الأماكن الدينية والمتمثلة بـ (مكة، الركن، البطحاء، يثرب، الروضة العلياء)، وكلها أماكن لها خصوصية دينية أضفت على الممدوح صبغة دينية وبخاصة أن القصيدة قيلت في مناسبة دينية وهي حلول شهر رمضان، فقد جعل من هذه الأماكن تزداد إليه شوقاً وتحن إليه كيف لا وهو سلالة جده إبراهيم عليه السلام وقد لجأ ابن هانئ في هذه الأبيات إلى استخدام اسم الإشارة (هذا) بشكل ملفت للنظر وربما كان القصد هو إضفاء الهيبة على ممدوحه وهناك من ذهب إلى ((أن اسم الإشارة حاجة معنوية لكنه في الشعر ليس كذلك، لذلك هو حاجة لفظية قبل كل شيء))^(٢).

ونلمح في هذه الأبيات تأثراً واضحاً بالشاعر الشرقي الفرزدق، وذلك في قصيدته التي مدح بها الإمام على زين العابدين رضى الله عنه والتي مطلعها:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبیت يعرفه والحل والحرم^(٣)

حيث نلاحظ أن ابن هانئ أكثر من اسم الإشارة هذا كما أن هناك بعض الألفاظ والمعاني التي تشارك فيها الشاعران مثل (البطحاء والركن) والتأكيد على ارتقاء نسب الممدوحين إلى شجرة الأنبياء وأن نور بيت النبوة قد أضاء عليهما^(٤).

(١) ديوان ابن هانئ ١٥-١٦.

(٢) الإشارة في شعر المتنبي، د. هادي الحمداني، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع ٢٠، ١٩٧٦م، ١١٩.

(٣) شرح ديوان الفرزدق، ٢/٣٥٣.

(٤) ينظر: دراسات في النص الشعري عصر صدرى الإسلام وبنى أمية، د. عبده بدوي، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط ١، ١٩٨٧م، ٢٣٧-٢٤١.

ويذهب شاعرنا إلى ذات الألفاظ والمعاني في أبيات أخرى وفي مدح الأمير عينه يقول:

وكأنتى بك قد هزجتَ ملبياً	وهدجتَ بين شعاب مكة والصفاء
وكأنتى بلواءٍ نصركَ خافقاً	قد حامَ بين المروتينِ ورفرفاً
والحجرِ مطلقاً إليك تشوقاً	والركنِ مهتزاً إليك تشوقاً
وخطبتُ قبل القوم خطبة فيصل	أثنى عليك فوعدُ ربك قد وفى
وخطبتُ بالزوراءِ أخرى مثلها	ووقفتُ بين يديك هذا الموقفاً ^(١)

فوجد ابن هانئ في هذه الأماكن (شعاب مكة، الصفا والمروة، الحجر والركن) ضالته فاتخذها مصدراً بدلالاتها الدينية، لتلائم مقام الممدوح فهي لم تأت اعتباطاً في ذهن الشاعر، لأن ((المكان يشير إلى دلالات رمزية لأشياء ومواقف أو حوادث كان لها حضور عند الشاعر))^(٢) حيث حمل ابن هانئ تلك الأماكن رسالته، لتبلغ ما استودع قلبه من مشاعر واستطاع من خلالها أن يوظف هذه المفردات وإضافتها على الممدوح، بحيث يصبح ذا فرادة وسمو وبهجة وكرم وبطولة وغيرها من الصفات التي لا ينافسه غيره عليها.

وللشاعر نفسه قصيدة أخرى يمدح فيها القائد جوهر قائلاً فيها:

فقد ضَرَعَتْ منه الرواسى لما رأت	فكيف قلوب الإنس والانس أضرعُ
فلا عسكرٌ من قبلٍ عسكرِ جوهرٍ	تخبُّ المطايا فيه عشراً وتوضع
تسيرُ الجبالُ الجامداتُ بسيره	وتسجدُ من أدنى الحفيفِ وتركعُ
إذا حلَّ فى أرضٍ بناها مدائنُ	وإن سارعن أرضٍ ثوتُ وهى بلقعُ ^(٣)

(١) ديوان ابن هانئ، ٩٢-٩٣.

(٢) جماليات المكان في شعر عرار، ٢١٩.

(٣) ديوان ابن هانئ، ٣٥٢-٣٥٣، الحفيف: الصوت، البلقع: الخالى.

فهو يجعل من تلك الجبال ذليلة أمام هذا القائد بل وتسير بسيره، وتسجد وتركع بمجرد سماعها صوته، فهو ينشر الخير والعمران في كل مكان يمر به، والأرض التي يغادرها تصبح صحراء خالية من الحياة.
وقال أيضاً.

ألا أيها الوادى المقدسُ بالطوى	وأهلُ الندى قلبى إليك مشوقُ
ويا أيها القصر المنيفُ قبابه	على الزّاب لا يُسدّدُ إليك طريقُ
ويا مَلِكَ الزاب الرفيع عماده	بقيتَ لجمع المجدِ وهى فريقُ
فما أنسَ لا أنسَ الأمير إذا بدا	يروع بحرّى ملكه ويروق ^(١)

فهنا يتشوق إلى كل الأمكنة التي ضمت ممدوحه، بدءاً بالوادى المقدس الواقع في الشام والقصر العالى البارز القباب، ويتذكر أيام عز الممدوح عندما يظهر له ويجرى في ملكه وقد أشار إلى القباب وهذا تأثر مشرقى فهي رمز مستوحى من التراث وهى عند العرب طراز من الخيام تضرب للسادات والأشراف والملوك^(٢).
وكثيراً ما استخدمها الشعراء رمزاً للكرم والسيادة المطلقة^(٣).

وخلاصة القول في مديح ابن هانئ أنه ((لم يكن يمتدح أحداً إلا لمحبة سرت في دمه وود تغلغل في أعماقه فأنطقه بالصدق والبراءة والإخلاص))^(٤).

أما ابن شخيص^(٥) (توفى بعد ٤٠٠ هـ) فقد نظم أبياتا في مدح الخليفة الحكم ابن

(١) تبين المعانى في شرح ديوانى ابن هانئ، ٨١٦.

(٢) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد على، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ٥/٧-٦.

(٣) ينظر: المفضليات للضبى، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون دار المعارف، مصر، ط ٤، ١٩٦٤م، ٣٦-٥٦.

(٤) ابن هانئ الأندلسى، عارف تامر، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط ٢، (د.ت)، ٣٣.

(٥) محمد بن مطرف بن شخيص يكنى أبا عبد الله من أهل الأدب المعروفين ومن أعيان الشعراء المتقدمين متصرفاً في القول سالكا في أساليب الجد والهزل، وكان من أهل قرطبة اتصل بالمنصور بن عامر توفى بعد (٤٠٠ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ١١٤٩، بغية الملتبس، ١/١٦٨، تاريخ الأدب العربى، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ٩٢٩م، ٤/٩٢٩.

عبد الرحمن الناصر^(١) (ت: ٣٦٦هـ) بالغ فيها أى مبالغة عندما جعل جنان الخلد
(ذلك المكان المقدس) مجنونة من طول انتظارها للمدوح بقوله:

أظنُّ جنانَ الخلدِ جُنَّتْ صِباةُ إليه فَدَارَتْ حينَ طالَ انتظارُها
إذا ابتهلَ الحجاجُ بالشعبِ من مَنى وقد حانَ عن رمى الجمارِ انحدارُها
حكى هزجَ الأطيارِ ليلاً عَجيجُها ومُستترَ النوارِ صُبحاً جِمارُها^(٢)

وبعيدا عن المكان الدينى كان للمكان الطبيعى دور فاعل فهذا وليد بن مسلم
المرادي^(٣) يجعل من كرم المدوح أسمى وأصفى من ماء النهر حين قال:

أما ترى النهر يا منصور كيف طفا وعمّ ما جاور العبرين بالضربِ
وأعجب لجوادك لم يفن الورى غرقاً فيه وقد عمّ أهل البدو والحضرِ
ما ذاك إلا لأن الجود عنصره صافٍ يميزُ وهذا بينُ الكدرِ
وإن عهدى به والشمل تعبره وإذا انقشع عنه وابلُ المطرِ
وكم أرى منه من بعد عزته سيعود كالكلب من الودِّ إلى حجرٍ^(٤)

فرأى هذا الشاعر طغيان ماء النهر، وما تسبب فيه من ضرر مناسبة للتعجب من
جود المدوح الذى عم أهل الحضر والبادية، ومرد هذا أن منبع المدوح هو الجود
والكرم إلا أن جود المدوح يختلف عن جود النهر فهذا عذب رائق وجود النهر
عكر.

(١) الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن
عبد الرحمن الداخل، كنيته أبوالمطرف، بويج للخلافة فى (٣٥٠ هـ)، واستمر إلى أن توفى عام ٣٦٦
هـ، لقب بالمستنصر بالله. ينظر: البيان المغرب، ٢/ ٢٢٢.

(٢) شعر ابن شخيص الأندلسى، جمع وتقديم: أحمد عبد القاهر صلاحية، دار ابن القيم للنشر، ١٩٩٢
م، ٥٢.

(٣) وليد بن مسلم المرادى، يكنى بأبى العباس ومن شعراء الدولة العامية. ينظر: بغية الملتبس، ٢/
٦٤٨.

(٤) بغية الملتبس، ٢/ ٦٤٨.

والملاحظ أن الشاعر الأندلسي كان ينطلق من هذه الدلالات المرتبطة بالمكان ويلجأ إليها سواء أكان مقدساً أم طبيعياً ويجعل منها معادلاً كقوة الكرم المدوح ((فهى أرض كريمة جمعت من المحاسن ما هز المشاعر وشحد القرائح وساعد على الإبداع فرسموا بها أروع الصور واستلهموا بها أروع الصور واستلهموا من حسناتها وبهاؤها أعذب الألحان))^(١)، ولابن شهيد قصيدة جميلة في مدح عبد العزيز المؤتمن استلهمها بوصف جميل للرياض وصاغ منها درراً تليق بمقام المدوح قائلاً:

أما الرياحُ بجوِّ عاصمٍ	فحلبنَ أخلافَ الغمامِ
سَهَرِ الحَيا بِرياضِها	فأسالها والنورُ نائمٌ
حتى اغتدت زهراؤها	كالغيدِ باللُّججِ العوائِمِ
من ثيِّباتٍ ملَّ ثبلٌ	كشفَ الخُدودِ ولا المعاصِمِ
وصغارٍ أبكارٍ شكَّتْ	خجلاً فعاذت بالكمائمِ
وردَّ كما خجلتْ خُدُو	ذُ العينِ من لحظاتِ هائمِ
وشقيقِ نعمانٍ شكَّتْ	صفحاته من لطمٍ لا طمِ
وغصونُ أشجارٍ حكَّتْ	رقصَ المائِمِ للمائِمِ
من باسمٍ بأكِ إلي	كَنَدٍ وبالكِ وهو باسمِ ^(٢)

إنها أبيات تدفقت من قريحة الشاعر فأغمرتنا بتلك الألفاظ والمعاني الجميلة، فقد وجد ضالته في ذلك المكان-الرياض- وجعل منه وعاء رحبا محببا إلى نفس مدوحه حتى الرياح في تلك الرياض جالبة للخير، فيشبه زهورها بالنساء ذوات الأعين النجل اللواتي تحمر خجلا من نظرات المراقبين، ويشبهها أيضاً بالخدود المحمرة من اللطم وقد تضمنت هذه القصيدة ((أكثر الخصائص التي اتصف بها

(١) في الشعر الأندلسي، د.عدنان صالح مصطفى، دار الثقافة، الدوحة، ط١، ١٩٨٧م، ١٥.

(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي، ١٥٥.

شعر الطبيعة في الأندلس من حيث خفة المعانى وحلاوة الألفاظ ورشاقة التعبير وطرافة الصور وجمال القافية وقصر البحر في إطار بهيج من بهاء الطبيعة ومتعة (اللهو)^(١).

وخلاصة القول أن شعراء المديح في الأندلس استطاعوا أن ينفذوا إلى نفوس مدوحيههم وأهوائهم ورسوموا لنا لوحات جذابة ناطقة بالصدق في المشاعر والعواطف، وظل المكان بقسميه الدينى والطبيعى وأماكن الرحلة مصدر وحى وإلهام للشعراء الأندلسيين، وجسدوا من تلك الأماكن ما يناسب مقام المدوح.

(١) ملامح الشعر الأندلسى، د. عمر الدقاق، منشورات دار الشروق، بيروت، ٢١٩، ١٩٧٥.

المبحث الثالث المكان والوصف

الوصف غرض شعري له مكانته في الشعر العربي قديما وحديثا فهو ينقلنا إلى عالم آخر يخلقه لنا الشاعر وينقل ما فيه من دلالات نفسية وفكرية. لذلك كان من شروط الوصف أن يكون ((سمحا سهل مخارج الحروف من مواقعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة))^(١).

وعن الشعر يقول ابن رشيقي: ((الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف))^(٢) ولقد حبا الله الأندلس بطبيعة خلابة ((وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب، وهامت بها النفوس فتعلق بها الأندلسيون جميعا وأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع))^(٣). كيف لا وقد قال عنها الرازي ((كريمة البقعة بطبع الخلقة طيبة التربة، مخصبة القاعة، منبعه العيون الثراء، متفجرة بالأنهار الغزار... معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قیظها زيادة مكفهرة تضر بالأبدان، وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسط في حال))^(٤) ولهذا جاء وصفهم تعبيرا عن استجابة هذه النفوس الشاعرة لرغبتها في التمتع بجمال الطبيعة أو الاستجابة لتأثير مظاهر الجمال. وقد أضفت

(١) نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر (٣٧٧هـ)، تح: د. كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١٩٧٨م، ٣، ١١٨-١١٩.

(٢) العمدة، ٢/ ٢٩٤.

(٣) الطبيعة في الشعر الأندلسي. د. جودة الركابي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٩م، ١٤.

(٤) نفح الطيب، ١/ ١٤٠.

الحضارة الجديدة الوافدة إلى البلاد ((من الرقى ما جعل سكانها يحافظون على روح الجمال الطبيعي في بلدتهم وينمونونه ويزيدون فيه فأصبحت الأندلس أغنية عذبة في فم الشاعر ينشدها وهو بين ظهرانيتها وأنشودة ساحرة على لسانه يرددها وهو مغترب عنها))^(١)، فقليل فيها أجمل الأوصاف، وراح الشعراء يرسمون بالكلمات ما رأَت عيونهم من جمال لذلك المكان حتى فاض نتائجهم في هذا المجال، وظلت الأندلس مكانا معطاء أمد الشعراء بأجمل الأوصاف وصاغوا من الألفاظ لآلئ تليق به.

فالشاعر يريد أن يخلق من خلال الوصف صلة بينه وبين المكان وقد يصبح صورة لأمانيه وتطلعاته أو قد يصبح علامة دالة على واقعه المعاش ووضعه اليومي ((ومن المعروف أن لكل مكان أفعاله الخاصة، ولكل فعل سمات مكانية خاصة))^(٢). فسيطر على تخيلة الشعراء وما عاد يمكنهم التخلص من أسرته المحب وهذا مما لا شك فيه، لأن ((الشاعر ذواق ذو إحساس مرهف تنطبع على قريحته الصافية وفي عقله الخصب الصور الفاتنة المرائي النابضة بالحياة))^(٣). ويمكن لنا أن نلج إلى هذا المبحث من خلال مكانين هما:

أولاً: وصف المكان الطبيعي.

ثانياً: وصف المكان الحضري.

أولاً: المكان الطبيعي.

وهو المكان الذي يستمد جماله من الطبيعة والذي قليلا ما يكون للإنسان دور في إضفاء هذا الجمال وأولى تلك الأماكن التي جذبت أنظار الشعراء وفتحت

(١) (الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٧٥م، ٢٣.

(٢) (دلالة المكان في قصص الأطفال ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٨٥م، ٦.

(٣) (في الأدب الأندلسي، ٦٨.

قرائحهم هي الأنهار، فقد أكثروا فيها الوصف متأملين ما فيها من جمال وصفاء. وأول من يطالعنا في وصفه للأنهار هو محمد بن الحسين الطائري^(١) (٣٩٤ هـ) حيث يقول:

وكان مجرى الماء بين سطوحه مجرى مياه الوصل في كبد الصدى
في مثل أصراح الزجاج مرخم ومسطح يحكى احمرار المجسد^(٢)

فهو يشبه جريان الماء في النهر كوصل الحبيب للمحبوب بعد طول هجر. ويصف هذا النهر مرة أخرى وصفا بديعا فهو مكسو بالضفة وإذا استقام رأيت عليه رونق وإذا استدار فهو كسوار حول معصم ولنستمع لقوله:

والنهر مكسو غلالة فضة فإذا جرى سيل فثوب نضار
وإذا استقام رأيت رونق متصل وإذا استدار رأيت عطف سوار^(٣)

وهذا أسلوب كثيرًا ما لجأ إليه شعراء الأندلس قبل الطائري ((لأن التشكيل المكاني في القصيدة كالتشكيل الزماني معناه إخضاع الطبيعة لحركة النفس وحاجاتها))^(٤) فهذا ابن هذيل القرطبي (٣٨٩ هـ) يصف لنا أرضا عاطرة النواحي حيث يقول:

والأرض عاطرة النواحي غضة خضراء في ثوب أغر جديد
والماء تدفعه إليك متاعب شتى من الميثاء والجلمود

(١) محمد بن الحسين الطائري لقب بالطائري، لأنه طرأ على قرطبة من طينة وهي مركز منطقة الزاب بالعدوة ولد سنة (٣٠٠هـ) ودخل الأندلس سنة (٣٢٥هـ) واتصل بالحكم المستنصر في حكم أبيه الناصر وكان شاعرا مكثرا وأديبا توفي سنة (٣٩٤هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٤٧، تاريخ علماء الأندلس، ٢/٤٠٩، البغية، ١/٩٥، المغرب، ١/٢٠١، الصلاة، ٣/٨٦١.

(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطيب (ت: ٤٢٠هـ)، تح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ٦٣-٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ٦٤.

(٤) التفسير نفسه للأدب، ٦٥.

صافو على صفة المها ومذاقهُ
ملا التلاع فأقبلت وكأثها
تنحو إلى حال الغطيظ ورثما
وتشير طافية الحصى فكأثها
شهد فخذ من طيب وبرود
هجمات حيت ذوات حقود
زأرت فسمعها زئير أسود
دلت على الساعات فهم بليد^(١)

فهو يصف تلك الرياض العاطرة بخضرتها والماء تدفعه تلك القلعة المتوسطة في ذلك المجرى الذى انعكس إيجابيا على جمالية المكان ويشبهه بهجمات حاكمة وصوت الماء كزئير الأسد، إنه فنان أبدع وصور.

فأعجب الشاعر الأندلسى بتلك الأماكن ((فهى جنته الفيحاء التى أعجب بها، وشاطره هذا الإعجاب أهل المغرب والمشرق على حد سواء))^(٢).

ولم يكتف بوصف المشهد الطبيعى الذى يراه وإنما كان يتناول مشاهد الخيال ويشملها برعايته وعنايته. فهذا الشريف الطليق يصف لنا جدولا هو الآخر حين قال:

وكان الماء فيها ثعابين
لجين تبعثت فى السواقى
وكان الحصباء فى رونق الماء
سنا الدر فى بياض التراقى^(٣)

فهو الآخر يشبه حركة الماء بحركة الثعابين أما قاع ذلك المكان فهو أشبه بجوهر قد شع نوره على نحر غادة بيضاء.

إن علاقة الشاعر بالمكان الطبيعى هى علاقة متجددة عبر الشعر بل وتتحول هذه العلاقة إلى علاقة التحام وانتماء حتى يكاد المكان يمتلك الشاعر امتلاكا روحيا

(١) شعر يحيى بن هذيل القرطبي، ٨٣.

(٢) تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى، على محمد حمودى، دار الكتاب العربى، مصر، ط ١، ١٩٥٧م، ١.

(٣) مع شعراء الأندلس والمنتبى، ٨٠.

وجسديا وبحيث لا يمكن للشاعر التخلص من أسر قيوده ولم يعد المكان وعاء خارجيا يضم جسد الشاعر بل تجاوز هذا الحد وأصبح يتغلغل في شعاب روحه ويلتحم معها^(١).

ومن هذا المنطلق وهذه الرؤية يكمن سر العلاقة بين الشاعر والرياض فقد منحه هذا المكان مشاعر جياشة وعواطف صادقة نابغة منه فوجد في جماها ضالته بل ومأوى لنفسه المضطربة ويطالعنا ابن عبد ربه بقوله:

وروضة عقدت أيدى الربيع بها	نورا بنور وترويحاً بترويح
بملقح من سواربها وملقحة	ونائج عن غواديها ومنسوج
توشحت بملأ غير ملحمة	من نورها ورداء غير منسوج
فألبست حلل الموشى زهرتها	وجللتها بأغماط الديابيح ^(٢)

فهو يصف جمال تلك الروضة التي عقدت أيدى الربيع بها فتبرز روح الشاعر المنفتحة في ذلك المكان والممتزجة به مظهرا كل الصفات الجمالية له.

إن السمة الغالبة على مفردات هذا المكان-الرياض- هي التنويع والتكرار وإضفاء صفات الزهو والبهجة والنور عليه وهذا ما وجدناه لدى سليمان بن بطل^(٣) (توفي قريبا من ٤٠٠ هـ) حيث يقول:

تبدت لنا الأرض مزهوة	علينا ببهجة أثوابها
كان أزاهرها أكؤس	حادثها أنامل شرابها
كان الغصون لها أذرع	تناولها بعض أصحابها

(١) ينظر: المكان والرؤية الإبداعية، نادية غازي العزاوي، مجلة آفاق عربية، آذار، نيسان، السنة الثالثة والعشرون، ١٩٩٨ م، ٤٠.

(٢) ديوان ابن عبد ربه، ٣٧.

(٣) أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطل البطليوسي كان فقيها مقدما وشاعرا محسنا توفي قريبا من (٤٠٠ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٣٤٤، البغية، ٢/ ٣٧٩.

وقد أعجب النور فيها الذباب فيهزجُ من فرط إعجابها
 كأن تعانقها فى الجنوب تعانقُ خُودَ وأترابها
 كأن ترقُرق أجفانها بُكاها لفرقة أحبابها^(١)

إن هذا النص يكشف لنا عن وضع الشاعر النفسى والحياة والظروف المحيطة به فهو يصف لنا بهجة تلك الرياض وزهوها فيشبه أزهارها بالكؤوس، والغصون أذرع ويشبه ملاقة الزهر لنسيم الجنوب كتعانق المرأة مع حبيبها وقد بكت لفراقه ولجأ الشاعر إلى الإكثار من أداة التشبيه محاولاً إضفاء تليق بتلك الرياض.

ولم يكن الرمادى أقل شأنًا فى هذا المجال من الشعراء الآخرين فقد صور لنا جمالية الروض وسقوط المطر عليه فأصبح وكأنه ثوب قد نسجت خيوطه وطرزت باللؤلؤ فقال:

بكت السحابُ على الرياض فحسُنتُ منها غروسًا من دموع ثُكُولِ
 فكأنَّها والطللُ يشرقُ فوقها وشيءٌ يحاك بلؤلؤٍ مَفْصُولِ^(٢)

وقد ارتبط شعراء الأندلس بهذا المكان ارتباطاً وثيقاً وحيوا لما له من ميزة خاصة ونكهة فريدة وجدوها فيه فهذا ابن النظام^(٣) يقول:

أما ترى المزنُ كيف ينتخبُ ودمعهُ فى الرياض منسكبُ
 والأرضُ مسرورةٌ بزينتها مما بها يستخفهُ الطربُ
 قد لبست من ثيابها حلاًلاً وزينتها الوشحُ والقصبُ

(١) البديع فى وصف الربيع، للأديب أبى الوليد إساعيل بن عامر الحميرى (توفى قريبا من ٤٤٠ هـ)، اعتنى بنشره وجمعه: الأستاذ هنرى بيرس، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٤٠م، ١٤.

(٢) شعر الرمادى، ١٠٧.

(٣) عبد الملك بن عبد الحكم يعرف بابن النظام من شعراء المنصور بن أبى عامر وكنيته أبو بكر الكاتب، نظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٤٥٢.

وقد بدت للبهارِ ألوية يغض مسكا طلوعها عجب^(١)

إذا أعجب هذا الشاعر وتعجب بتلك الرياض فيتساءل عن السحب كيف تسكب دموعها على تلك الرياض فالأرض جادت بزینتها وسرورها وقد لبست من ثيابها حللا وهى ترقص فرحا وطربا مما جادت المزن عليها فنشرت عير ورودها.

وقريب من هذا الإعجاب ما ذهب إليه على بن أبى الحسين^(٢) فى وصفه لتلك الرياض بقوله:

كأنما الـروضَ هَـيْفاً فى حَلَّةٍ ووشاح
تـشیرُ غـمـزاً عَلینا بـنـرجسٍ وإقـلاح
نُقولُ من عافَ وصلى فـماله من فـلاح^(٣)

إنه يضيف عليها بعض الصفات الإنسانية فهى عادة طويلة القوام تشير إلى الشاعر لا بنظرة بل بالنرجس والأقحوان وكأنها تقول له قد خسر كل من لم يواصل هذا الجمال.

إن مهمة الشاعر الوصاف لتلك الرياض لا تعدو أن تكون كمهمة الرسام إذ يعتمد فى أغلب الأحيان إلى نقل مشاهد ذلك المكان بكل جزئياته محاولا المزج بينها وبين نفسه فهذا عبادة بن ماء السماء^(٤) (توفى بعد ٤٢٢ هـ) يصفها بقوله:

-
- (١) جذوة المقتبس، ٤٥٢/٢، وينظر: بغية الملتبس، ٢٩٤/٢
(٢) على بن محمد بن الحسن أبو الحسين صاحب كتاب التشبيهات من أشهار أهل الأندلس توفى بحدود (٤٢٠ هـ). ينظر: بغية الملتبس، ٥٤١/٢، الصلة، ٦٠١/٢
(٣) التشبيهات، ٤٧.
(٤) عبادة بن عبدالله الأنصارى من ذرية سعد بن عبادة وقيل له: ابن ماء السماء، لجدهم الأول من فحول شعراء الأندلس ومن المداحين المعروفين أكثر من مدحه للمنصور بن أبى عامر، وقد تكسب بالشعر، وله كتاب فى أخبار الأندلس توفى بعد ٤٢٢ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٤٦٣/٢، مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس، تأليف الفتح بن خاقان الأندلس، تحقيق: د. هدى شوكت بهنام، دار الغصون، بيروت، ١٦٠.

وتمايلت أغصانها ميادةً مثل أئمياد الخوذ حلّ خمارها
وتضوّعت ریحُ الجنوبِ خلالها فحكى لك المسك الذكى بهارها
وكانَ شدوّ دُبابها وغناءهُ عزفُ القيانِ تناوحتْ أوتارها^(١)

فتمايل أغصانها كتمايل فتاة وقد نزع عنها خمارها ولاعب النسيم هذه الأغصان فتضوع أريج الزهور، حتى تحول طنين الذباب إلى غناء القيان وعزفها على الأوتار.

إن المكان مملوء بعدة أشياء يزخر بها العالم الخارجى هذه الأشياء تجسد قوة هائلة يتفاعل معها الإنسان أما عن وظيفة وصف المكان فهي تجسيد جمالية الأشياء فيه^(٢). لذلك أقبل الشاعر الأندلسى ((مع ثقافته الشعرية على الطبيعة فتأملها وأمعن التأمل ثم استخرج من المعانى أروعها ونظم من الأخيلة أجملها ولهذا يقرأ الإنسان سلطان الطبيعة على النفس، تأسر البصر بعض أزاهيرها ثم تمنح الحرية للنفس))^(٣).

وخلاصة القول أن الشاعر الأندلسى ارتبط بذلك المكان ارتباطاً روحياً وملك شغافه واتخذ منه ملجأً وملاذاً للذات يسكب فيه الهموم ويأخذ منه الراحة النفسية، إنه مسكن الروح.

ثانياً: وصف المكان الحضري.

هو المكان الذى صنعه الإنسان وأوجده الفكر البشرى وهو يدل على مدى الترف والثراء والوضع الاجتماعى والسلطة والسيادة ويمكن إجمال هذا النوع من الأمكنة بالقصور، وقد أسرف أمراء الأندلس فى بناء القصور فتطاولوا بالبناء

(١) التشبيهات، ٤٨.

(٢) ينظر: بناء الرواية دراسة مقارنة فى ثلاثية نجيب محفوظ، د. سيزا القاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ١٠٠، وينظر: المكان فى الشعر العربى قبل الإسلام، ٢٨٩.

(٣) شعر الطبيعة فى الأدب العربى، د. سيد نوفل، دار المعارف، ٢٧٣.

وشيدوا في كل مدينة صرحاً حضارية من الناحية السياسية والاجتماعية، فقد أصبحت مراكز جذب واستقطاب للعلماء والأدباء والتجار، وقصدها الناس من كل حذب وصوب، ولعل أكثر من أسرف في بناء تلك القصور هو عبد الرحمن الأوسط، كل هذا الشيء كان من نتائجه إلهاب خيال الشعراء وشحن قرائحهم، فأعجبته تلك الأماكن، فراحوا يصفون ما فيها من جمال وعلو وشموخ، مما شارك بشكل فعلى في نضوج الوصف في تلك الحقبة.

إنها منازل الملوك ومظهر من مظاهر الترف وهيبة ملكهم على الأرض، إنها المكان الذى يميز السادة عن غيرهم^(١)، والقصر بمعناه الأوسع ((يحمل دلالات كثيرة ويتعدى ذلك إلى مفاهيم أوسع وأشمل فهو الوطن والكيان الذى يحمل الرمز والتاريخ والمطامح)) ولنستمع إلى بديع وصف عباس بن فرناس^(٢) لأحد القصور يقول:

حنايا كأمثالِ الأهلة رُكبت على عمدٍ تُعتدُّ فى جوهر البدرِ
كأن من الياقوتِ قيست رؤوسُها على كل مسنونٍ مقبضٍ من السدرِ

ترى الباسقات الناشراتِ فروعها موائس فيها من مزاولَةِ الوفْرِ
كأن صباغاً صاغ بين غصونها من الذهب البادى عراجين من تمرٍ
نشت لؤلؤاً ثم استحالت زمرّداً يؤول إلى العقيان قبل جنى البُسْرِ^(٣)

(١) دلالات المكان في تعميق الجو النفسى للشخصية في الفلم السينمائى، نادية فاروق، رسالة ماجستير، كلية الفنون الجميلة، جامعة بغداد، ٢٠٠١م، ٢٦.

(٢) أبو القاسم عباس بن فرناس مولى بنى أمية، كان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكان شاعراً أدبياً مشهوراً برز في الفلسفة والنجوم، توفي بعد (٢٨٤ هـ). ينظر: الجذوة، ٥٠٢/٢، البغية، ٥٠٢/٢، ٥٦١، المغرب، ٣٣٣/١.

(٣) ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، للدكتور صلاح جرار، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى، ٣٩٤، السنة الرابعة عشرة، ١٩٩٠م، ١٦٠-١٦١.

فيصف الشاعر أقواس القباب بالأهلة من حيث استدارتها وعلوها، وهذه الأهلة قائمة على أعمدة كأنها من الياقوت، وقد وجد الشاعر فيها شبهاً بين هذه الأعمدة وزخارها بالنخل وقد حملت بأعناق التمر المختلف ألوانه.

وهذا الحسن بن حسان^(١) هو الآخر يفتن كل الافتتان بروعة هذه القصور ولهذا يقول:

مقاصيرُ تحتجُ السماءُ وتدعى	على الأرض فيها باحتجاج موكدٍ
ومن عُرفٍ فيها حنايا كأنها	مثنى عبيرٍ فوق أصداغ خردٍ
ومن عمدٍ تزهى بماء محاسنٍ	يُصوبُ عنه كلُّ طرفٍ مُصعدٍ
حكّت حمرها الياقوت والدرّ بيضها	ومن خضرها اشتقّ اخضرارُ الزبرجدِ
يجولُ السنا فيها مجالُ الشعاع في	صفحة سيفٍ الصقيل المتقلدِ
أينبأ سليمانُ بصرحٍ ممرّدٍ	وقصرُك فيه كلُّ صرحٍ مُمرّدٍ
عشيقٌ ومعشوقٌ وبهوٌ وزاهرٌ	إلى كاملٍ في حسنه ومُحدّدٍ
وعُلْيَه تُدعى المنيف كأنما	ذوائبها نيطت بنسرٍ وفرقدٍ
مجالسُ طالت في السماء وأشرقتُ	متى تبدّ للأبصارِ تقربٌ وتبعُدُ
ظلامُ الدجى فيها نهارٌ كأنما	تروحُ وتمسى الشمسُ فيها وتغتدى
كأنَّ صدى الأنفاس بين صحونها	أهازيجُ ترنيم الحمام المغرّد ^(٢)

(١) هو أبو علي الحسن بن حسان يعرف بالساط، كان شاعراً مقدماً كثيراً في أيام عبد الرحمن الناس (٣٠٠-٣٥٠هـ). ينظر: الجذوة، ١/ ٢٩٥، البغية، ١/ ٢٣٢.

(٢) التشبيهات، ٧٧-٧٨.

فقد استطاع هذا الشاعر أن يصف لنا تلك القصور وما امتازت به من روعة هندستها وجمال علوها وشموخ أعمدتها فهي متألثة تشع بياضا، إنه وصف جمالى لذلك المكان الذى أسهم وبشكل واضح فى نزوج هذا الفن الوصفى وتطوره.

وهذا ابن هذيل يصف لنا مبانى الزهراء^(١)، ويضفى عليها بعض صفات الكائن الحى محاولا إبراز القيمة الجمالية لذلك المكان فيصف أقواسها بأجنحة الطير ويلجأ إلى استخدام أداة التشبيه كأن بشكل تكرارى، محاولا بواسطة هذه الأداة إضفاء تشبيهات جميلة، فالنخيل الباسقات الشامخات إلى العلا شبيهة بالعدارى، أما جنى الورد فيها فأشبهه بلقاء عشيقين أظهرها الخجل، إنه ((بيث الحياة فى جماداتها ويستعير عناصر المكان من الطبيعة الإنسانية))^(٢) حيث يقول:

كأَنَّ حَنَايَاهَا جَنَاحًا مُصَفَّقٍ	إذا أَلْبَسَتْهُ الشَّمْسُ أَرْخَاهُمَا نَشْرًا
كأَنَّ سَوَارِيهَا شَكَتْ فِتْرَةَ الضَّنَى	فَبَاتَتْ هَضِيمَاتِ الْحَشَا نُحْلًا صُفْرًا
كأَنَّ الذِّى زَانَ الْبَيَاضَ نُحُورَهَا	يُعَذِّبُهَا هَجْرًا وَيَقْطَعُهَا كَبْرًا
كأَنَّ النَّخِيلَ الْبَاسِقَاتِ إِلَى الْغَلَا	عَذَارَى حِجَالِ رَجُلَتْ لِمَا شَقْرًا
كَأَنَّ الْغُصُونِ الْآسَى وَالرِّيحَ بَيْنَهَا	مُتَوْنُ نَشَاوَى كُلَّمَا اضْطَرَبَتْ سُكْرًا
كَأَنَّ جَنَى الْجُلُنَّارِ وَوَرْدَهُ	عَشِيقَانِ لَمَّا اسْتَجْمَعَا أَظْهَرَا خَفْرًا ^(٣)

فقد استطاع ابن هذيل فى هذه الأبيات أن ينمى ويطور لنا الإحساس المرفه بتلك القصور، ويكشف لنا من خلال هذا الوصف عن جمالية تلك القصور والحق

(١) الزهراء وهى المدينة التى شيدها عبد الرحمن الناصر غربى قرطبة فى سفح جبل سنة (٣٢٥ هـ) وأنفق عليها الأموال الطائلة ووصفها كثير من الشعراء بجمالها وفخامة عمرانها ودقة تصميمها. ينظر: البيان المغرب، ٢/ ٢٣١، المغرب، ١/ ١٧٩، قصر الزهراء فى الأندلس، نجله إسماعيل العزى، بغداد، ١٩٧٧، ٢٨-٣٢.

(٢) شعر يحيى بن هذيل القرطبى، ٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ٨٤.

أن كل ما قيل في الزهراء فهو قليل بشأنها فقد ((كانت الزهراء درة فريدة في قرطبة وكانت قرطبة جوهرة العالم))^(١).

وإلى هذا الوصف يذهب عبد السلام^(٢) واصفا مباني الزاهرة^(٣) بقوله:

كأئما الوحى يأتيه بأرسمها من الجنان فلا يعدو الذى أمره
كأئما عُمْدُ الأبهاء إذا برزت سوقٌ تبدت من الأنوار مُنَحْصِرة
كأئما طررَ الإقياء مائلةً غيدٌ لوى الحسنُ فى لبّاتها طرره^(٤)

فالشاعر هنا جنح إلى المبالغة وبشكل لافت للنظر عندما جعل رسمها من صنع الوحى يأتي به من الجنان وليس من صنع الإنسان محاولا إضفاء أجمل الصفات على هذا المكان ويغلب على هذه الأبيات سهولة الألفاظ ووضوح المعانى.

إن هذا الإغراق فى الوصف المكانى ما هو الانعكاس للازدهار الثقافى والاقتصادى والاجتماعى الذى شهدته بلاد الأندلس فى تلك المرحلة، فهو فن أصيل من الفنون التى ابتكرها شعراء الأندلس وطبعوها بأفكارهم^(٥).

فقد تطور الذوق العربى بتطور الحياة، وأخذ الناس بأسباب الحضارة، فرقت مشاعرهم، وأخذت أحاسيسهم بالصفاء تجاه تلك الأمكنة، فليس من العجب أن يتألق وصف الزهراء والزاهرة فى تلك المرحلة إذ ((إن العمارة فى مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت إلى أن كان يمشى فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال))^(٦).

(١) تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى، ٢١٥.

(٢) عبد السلام: يذهب الدكتور إحسان عباس بأنه على الأرجح هو عبد السلام بن عبد الله بن زياد اللخمى القرطبى أبو عبد الملك (ت: ٣٧١هـ)، ينظر: ملحق التشبيهات، ٣١٣.

(٣) الزاهرة وهى المدينة التى بناها المنصور ابن أبى عامر بناها سنة (٣٦٨هـ) وأقامها على نهر قرطبة واستغرق بناؤها عامين وبجانها المنية العامرية، ينظر: نفع الطيب، ٥٧٨/١.

(٤) التشبيهات، ٦٩.

(٥) ينظر: دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى، ٦٥.

(٦) فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم، وابن سعيد الشقندى (ت: ٦٢٩هـ)، نشر: الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨م، ٥٥.

ويصف لنا محمد بن الحسين الطارئ قصر البهو مشيداً أيضاً بروعة هندسته وجمال أعمدته ولجأ بعض الشيء إلى المبالغة، القصد منها إظهار الفاعلية المعنوية والنفسية للمكان فهو يصف ذلك المكان ويمعن النظر فيه متأملاً بكل جوانبه، هذا التأمل يهيء له انفتاح المخيلة الشعرية فلنستمع لقوله:

عُقِدَتْ أَهْلَةٌ بِهِوَهُ فَكَأَنَّهَا	عُقِدَ الشُّنُوفُ عَلَى خُدُودِ الْخُرْدِ
مَنْ تَحْتَهَا عَمْدٌ كَأَنَّ فَرِيدَهَا	مَنْ جَوْهَرٍ وَزَبْرَجْدٍ وَلَا لِيٍّ وَزَبْرَجْدٍ
تَحْكِي الْحَسَانَ قَدُودَهَا لَكِنَّا	فِي خَلْقِهَا لَيْسَتْ بِذَاتٍ تَأُودُ
وَكَأَنَّما قَضْبَانُهُ اللَّاتِي سَمَتْ	تَبْغِي مَنَاجَاةَ النُّجُومِ الْوَقْدَ ^(١)

هذه الألفاظ التي استمدها الطارئ ليست مصطنعة وإنما هي مستمدة من واقع تلك القصور فيصف أعمدتها وكأنها من جوهر وزبرجد وهذه الأوصاف كثيراً ما لجأ إليها شعراء الأندلس، ويضفي عليه أيضاً صفات السمو والشموخ التي قرنها الشاعر بالنجوم العالية الملتهبة بنورها.

فكان لتلك القصور صدى كبير في شاعرية ونفسية المبدع، وهذا الصدى أنتج لنا شعراً يفيض عذوبة وجمالاً، فهذا ابن شخيص يصف لنا تلك المباني بأسلوب شعري منمق وجميل حيث يقول:

هَذِي مَبَانِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ غَدَتِ	يُزْرِي بِهَا آخِرُ الدُّنْيَا عَلَى الْأَوَّلِ
كَذَا الدَّرَارَى وَجَدْنَا الشَّمْسَ أَعْظَمَهَا	قَدْرًا وَإِنْ قَصُرَتْ فِي الْعُلُوفِ عَنْ رُحْلِ
لَقَدْ جَلَا مَصْنَعُ الزَّهْرَاءِ عَنْ أَثَرِ	مُوحِدِ الْقَدْرِ عَنْ مِثْلِ وَعَنْ مِثْلِ
فَأَتَتْ مُحَاسِنَهَا مَجْهُودًا وَاصْفَهَا	فَالْقَوْلُ كَالسَّكْتِ وَالْإِيجَازُ كَالْخَطْلِ
بَلْ فَضْلُهَا فِي مَبَانِي الْأَرْضِ أَجْمَعِهَا	كَفَضْلِ دَوْلَةٍ بَانِيهَا عَلَى الدُّوَلِ ^(٢)

(١) التشبيهات، ٧١.

(٢) شعر ابن شخيص، ٧٩-٨٠، يزري: يعيب ويحقر ويهون، الخطل: القول الفاسد المضطرب.

فقد صور لنا ابن شخيص هذه المباني بأسلوب جميل فقد جعل منها درة فريدة يعيب بها كل ما قام قبلها، ويقرن علوها بكواكب السماء وحسنها يفوت جهد كل واصف مهما قيل فيها.

ثم يلجأ بعد هذا إلى أسلوب سردي تفصيلي لكل أجزاء ذلك المكان المتمثلة بالأقواس والحوض وغيرها حين قال:

كادت قسى الحنايا أن تُضارِعَها	أهلة السعد لولا وصمة الأفل
تألقت فقد انقصائها كمالاً	وربما تنقصُ الأشياء بالكمل
أوفى سناها على أعلى مفارقها	من لؤلؤِ حالياتِ الخلقِ بالعطل
كم عاشقين من الأطيّارِ ما فتئا	فيها يرودان من روض إلى غلّ
إذا تهادى حبابُ الحوض حثّهما	على التنقل من نهلٍ إلى علل
كأنما أفرغت ألواحُ مرمره	من ماء عصراء لم يجمد ولم يسلي ^(١)

فتلك الأقواس كادت تضارع وترتقى إلى أهلة السعد لولا الغروب، فنقصانها كمال لها، حتى الأطيّار تعشق ذلك المكان فترده مرة وتحفى نفسها مرة أخرى وكأن ألواح المرمر من ماء صاف مستقر لم يجمد ولم يتحرك فهو ما بين الاثنين.

فأصبح وصف المكان الحضري عنصراً له دلالة خاصة واكتسب قيمة جمالية من خلال كشفه عن حياة الشخصية فهو كما أشرنا في صفحات سابقة انعكاس لشخصية الشاعر الذي عاش وترعرع في تلك الأماكن، فذهب يتغنى بها وبجمالها، ونلمس هذا الأثر في شعره، فوقف متأملاً فيها وفي مجالسها ورياضها الزاهية حين قال:

فها مجالسُ مثلُ الحورِ قد فُرِشت
فيها الرياضُ ولم يخللْ بها مطرٌ

(١) شعر ابن شخيص الأندلسي، ٨٠، العطل: تجرد المرأة من الزينة، النهل: أول الشرب وثانيها العلل.

إلى سطوح ترى أفريزها شَرِيقاً
 كأنما خفرت من طول ما لحظت
 وقبة مالها فى حُسْنِهَا ثمن
 كأنما فرشت بالورد متصلاً
 كأنما ذعرت من خوف سقطتها
 بَحْرَتَفَجَّرَ مِنْ لِيْثِيْنٍ مِلْتَطَمٌ
 مثل المرائى يُرى فى مائها الصُّورُ
 فقد تعدى إلى أبهائها الحُفَرُ
 لو أنه فيها العز والعمرُ
 فى الفرش فاتخذت منه لها أزرُ
 فى بحرها فبدا فى لونها الذعرُ
 يا من رأى البحرَ من ليثين ينفجر^(١)

فى هذه الأبيات يصف لنا الشاعر جمال مجالس تلك القصور ورياضها الزاهية وسطوحها البراقة الشبيهة بالمرآة، إذ يرى الإنسان فيها ذاته، أما قبتها فلا تثنى سوى بالعز، وكأنها مفروشة بالورد، وقد جسدت دلالة السيادة والعز.

إن الوصف الذى نسجه لنا شعراء الأندلس فى تلك الحقبة هو ليس من صنع الخيال الوهمى بل هو وصف لحقيقة الواقع فقد عاشوا فى تلك الأماكن وعاصروا عزها وشموخها فكان من الجدير بالوفاء أن يصفوا تلك المباني بأجمل الأوصاف. ومن الذين استوقفتهم تلك الأماكن ابن دراج القسطلی (ت: ٤٢١هـ) عندما وصف دار السرور وجعلها فوق النجوم، ووجد طيب الحياة وروحها من أنفاس هوائها أما الأعمدة التى قامت عليها فهى فريدة من نوعها إنها ((من الرخام المجزع المعرق بلونيه الرمادى المائل إلى الزرقة والوردى المجزع بلون أبيض))^(٢) أما السرور فقد اتخذ من تلك الأماكن دار الإقامة فلنستمع لقوله:

دارُ السرور المعتلى شُرفاتها
 فوقَ النجومِ الزُّهر فى استعلائها
 وكأنَّ غرَّ المزنِ لما جادها
 نشرتْ عليها من نفيسٍ مَلَائِها

(١) شعر الرمادى، ٧٠.

(٢) قصر الزهراء فى الأندلس، ١٢٧.

وَكأَنَّمَا أَيْدِي السَّعُودِ تَضُمُّنَتْ	إِبْداعُهَا فَبَنَتْ عَلَى أَهْوَائِهَا
وَكأَن رِيحانَ الحَيَاةِ وَروحَهَا	مَسْتَشَقٌّ مِنْ نَافحاتِ هَوائِهَا
فكأَنَّمَا اصْطَفَيْتِ طَلاقَةَ بَشَرِهَا	مِنْ أَوْجِهِ الْأَحبابِ يَومَ لِقائِهَا
قَامَتْ عَلَى عُمَدِ الرِّخامِ كَمَثَلِ ما	نُسِقَتْ نَجُومُ النِّظَمِ فِي جُوزائِهَا
بِمَقابِلِ مَنْ مُلْتَقَى أرواحِها	وَمَشاكِدِ مَنْ سَفَلِها وَعَلائِها
كَكُتَيْتَنِي رَجُلٍ وَرَكِبَ وَافَقَتْ	يَومَ الوَغى مِثْلينِ مِنْ أَكفائِها
وَكأَنَّمَا اخْتارَ السُّرُورُ مَكانَها	وَطَناً فَحَلَّ مُخَيِّماً بِفَنائِها ^(١)

وهكذا وجد شعراء الأندلس في تلك الأماكن جمالاً وروعة ودقة تصميم وألفة ونعيم، فتعانق معها وأفرد فيها مشاعر الحب وألهمته شعر التغنى وأشعاراً تفيض عذوبة وجمالاً، صورت جزء من تلك الأماكن الحضرية التي خلدها التاريخ.

(١) التشبيهات، ٦٧-٦٨. لم ترد هذه القصيدة في ديوانه.

المبحث الرابع المكان وأغراض أخرى

(١) المكان والرتاء

الرتاء تعبير عن خلجات قلب حزين تجد فيه لوعة صادقة ومشاعر جياشة بالعواطف، إنه البكاء على كل شيء مفقود وعزيز على الإنسان سواء أكان مكاناً أو إنساناً.

والرتاء غرض شعري قديم النشأة لجأ إليه الشعراء للتعبير عما يختلج في صدورهم من حزن ولوعة وتفجع، ومما لا شك فيه أن أصدق الرتاء ما كان صادراً من القلب، وما كانت الفجعة فيه مؤلمة شديدة، وليس أشد من فجعة ضياع المكان لا سيما إذا كان مكان الألفة.

فقد كان شعر الرتاء في الأندلس ((متابعا للأحداث ملاحقا المصائب مرافقا الكوارث، ومن ثم فقد كانت مسيرة هذا الشعر الحزين مسيرة تاريخية يسجل كل حادثة في زمانها وبكى كل كارثة في وقتها))^(١) فامتاز شعر الرتاء في الأندلس بميزة هي ((الإكثار من التفجع والتهويل والأحزان))^(٢) فجاء رتاء الشاعر الأندلسي لتلك الربوع والديار والمدن التي أصابها الدمار والخراب وأنتج لنا شعراً يكاد ينفرد به فقد طبع هذا اللون من الشعر بطابع أندلسي خاص فعد أبرز معالم الشخصية الأندلسية وتفوق على شعر الرتاء بصورة عامة))^(٣).

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ٥١٢.

(٢) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهايات القرن الثالث الهجري، ١٧٥.

(٣) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧ هـ)، تأليف: الدكتور منجد مصطفى بهجت، نشر: دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٨ م، ٣٠٤.

فظلت تلك الديار والأماكن شاهدا حسيا على متغيرات تلك الحياة الإنسانية التي أصابها الدمار، وحل بها الخراب وذهب سكانها الأبرياء فجاء رثاء تلك الأماكن تعبيرا عن خلجات نفس رأت بأم عينها تلك المآسى، فجاءت هذه الأشعار متصفة بصدق العاطفة وعمق التأثير وغزارة الدموع لكونها صادرة من نفس مسها الحزن والأسى.

والحق أن تلك الأماكن ظلت راسخة في الأذهان ولها ((حس أصيل وعميق في الوجدان البشري وخصوصاً إذا كان المكان وطن الألفة... ويزداد هذا الحس شحذاً إذا ما تعرض المكان للفقد والضياع))^(١) فظل رثاء تلك الأماكن تعبيرا عن تلك العواطف الصادقة المتفجعة بالأسى، إنها أماكن الذكريات التي عانى فيها الإنسان وأجهد نفسه في تكوينها وتآلف معها فهي ((جزء من تكوين الإنسان لذلك بقى المكان لصيقا بالتاريخ وبالحضارة وشاهداً حسياً على التطور والتغير وسجلاً أميناً لأفعالنا وأفعال من سبقونا))^(٢).

ومن هذا المنطلق يمثل المكان مستودعاً لهذه الذكريات ويظل يوحى للإنسان بالفعل المبدع ويمده بالشحنات النفسية والوجدانية ويؤجج المشاعر في قول الشعر لعله يعيد له شيئاً من التوازن بعد ذلك الفقدان، فجاء رثاء تلك الأماكن بصوت مؤلم بعد أن استوقفهم تلك الأماكن ناظرين إليها متأملين فيها بعدما ((ذابت بين حناياها أعز الأيام واندثرت عند نؤيها وأحجارها أحلى ذكريات الصبا وأيام الشباب))^(٣) فهذا عباس بن فرناس يرثي طليطلة عندما أصابها الدمار أيام الأمير محمد لما اشتد على أهلها فغزاهم واحتال في هدمها حين قال:

أضحت طليطلة معطلة من أهلها فى قبضة الصقر
ثركت بلا أهل تؤهلها مهجورة الأكناف كالقبر

(١) جاليات المكان، اعتدال عثمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ٥١.

(٢) إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ١، ١٩٨٦م، ١٥٩.

(٣) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، ٩.

مَا كَانَ يُبْقَى اللَّهُ قَنْطَرَةً أَضْحَتْ سَبِيلَ كِتَابِ الْكُفْرِ^(١)

أما عبد الله بن محمد^(٢) فيصف لنا آثار تلك الديار بأسلوب شعري شجي ومؤثر حيث يقول:

ديارٌ عليها من بشاشة أهلها بقايا تسرُّ النفس أنساً ومنظراً
رُيُوع كساها المزنُّ من خلع الحيا بُروداً وحلاًها من النور جوهرًا
تُسرك طوراً ثم تشجيك تارة فترتاح تأنيساً وتَشجى تذكُّراً^(٣)

إنه يعبر عن خلجات روحه القلقة الملتاعة بذهاب تلك الديار فيجد فيها تارة سروره وتارة أخرى تثير شجونه.

ويطالعنا ابن هانئ بأبيات شعرية من قصيدة مديح للمعز لدين الله مطالباً المسلمين بالنظر إلى تلك الديار التي أخذت تهوى في يد الروم أيام قوتهم وضعف دولة المعز فأثارت مشاعر ابن هانئ تلك الظروف ودفعت به إلى الرثاء المفجع المؤثر حيناً واليأس حيناً آخر محاولاً في رثائه لتلك الأماكن استنهاض الهمم واستثارة النفوس حيث قال:

يا ويلكم أفعالكم من صارخ إلا بشعرٍ ضاع أو دينٍ عفا
فمدينةٌ من بعد أخرى تُسبى وطريقةٌ من بعد أخرى تُقتفى
حتى لقد رجفت ديار ربيعه وتزلزلت أرض العراقِ تخوفاً
والشام قد أودى وأودى أهله إلا قليلاً والحجازُ على شفا
فعجبتُ من أن تميد الأرضُ من أقطارها وعجبتُ أن لا تُخسفاً

(١) ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ١٥٩.

(٢) عبد الله بن محمد: هو أبو الصخر أديب وشاعر ذكره أحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحقائق

(ت: ٣٦٠هـ). ينظر: بغية الملتبس، ٢/ ٤٣٢.

(٣) بغية الملتبس، ٢/ ٤٣٢.

أيسرُ قوماً أنْ مكَّةَ غُوِدِرَتْ
أو أنْ ملحود النبى ورَمَسَه
بمجرُ جيش الرُّوم قاعاً صَفَصَفَا
بمدارج الأقدام يُنْسَفُ مَنَسَفَا
فترَبَّصُوا فالله مُنْجِزٌ وَعَدِهِ
قد آن للظلماء أن تتكشَّفاً^(١)

إنها صرخة استنهاض للهمم بعد أن رأى توسع الروم في مختلف البلاد فيحاول إيقاظ العرب من نومهم، فالشام قد وقعت بأيديهم والحجاز على طريق الهلك أما مكة والمدينة فهى فى طريق الخطر، ثم يلجأ إلى الله منجز وعده وهازم الأحزاب وحده.

وأكثر ما أثار الشجون وهز النفوس هى قصور بنى أمية التى أصابها الدمار والخراب بعد أن نالت من ترف وشموخ وعز ما لا يضاهيها مكان آخر، فقد فجرت الحزن والأسى فى قلوب الشعراء فأنشدوا فيها العديد من قصائد الرثاء فهذا غالب بن أمية^(٢) يرثى قصور بنى أمية عندما جلس على نهر قرطبة وأصرف العنان إليها فأثارت الشجون وحركت مكان من نفسه وأخذ يقول:

يا قصركم قد ألفت من ملك
يا قصركم قد حوت من نعم
دارت عليهم دوائر الفلك
دارت لقى فى عوارض السكك
يعود يوماً لحال مترك
أنف بما شئت كل متخذ
فكل قصر لهم بلا ملك
أين ملوك الشام عددهم
تختال فى خزها وفى الفنك^(٣)
وقل لدنيا إليك مقبلة

فهو يرثى ذلك القصر الذى تقوض بناؤه وأصبح خاليا من الملوك فيرى أن على

(١) ديوان ابن هانئ، ٩٠-٩١.

(٢) غالب بن أمية بن غالب الموزورى، ٣٨٩هـ يكنى بأبى العاص، وسكن قرطبة، أديب شاعر. ينظر: جذوة المقتبس، ٥١٦/٢؛ بغية الملتبس، ٥٧٦/٢.

(٣) جذوة المقتبس، ١١٦/٢، بغية الملتبس، ٥٧٦/٢.

الإنسان أن لا يغتر بمتاع الحياة الدنيا وزخرفها فما هو إلا سراب خادع سرعان ما يزول، إنه شعور حزين لا يمكن أن يدركه شخص عادي، لأن هذا الشعور لا يدركه إلا الشعراء.

إن التركيز على تلك الأماكن في الشعر يعطيه عمقا وغزارة وخصوصية انتهائية وطنية توسع في دائرة الانتماء في نفس الإنسان وتقوى من أبنية الوعي الانتهازي لديه وتشحذ في داخله مشاعر الحس القومي^(١).

أما قرطبة ف((قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها وآثارهم بها ظاهرة))^(٢) فقد ضاعت هي الآخرة وأصابها الخراب والدمار فربثها الشعراء بقصائد تنفطر لها القلوب كيف لا وهي عاصمة الخلافة وجنة الأندلس الفيحاء، فبدأ الشعراء ينظمون القصائد والمراثي وكانوا ما بين حزين متألم ويائس قانط ومنتظر متأمل وبيكيها أحيانا ويتفجع عليها أحيانا آخر.

فسجل الشعر ما أصاب ذلك المكان من خراب ودمار وأكثر الشعراء من التوجع والأسى والألم وحملوا الزعامات الهزيلة مسؤولية ما حل لقرطبة فهذا ابن عصفور الحضرمي^(٣) يقول:

أضعتُم الحزم في تدبير أمركمُ	ستعلمون معاً عُقبى البوار غداً
فلو رأيتم بعين الفكر حالكمُ	بكيتمُ بدم أن دمتُم بـدداً
لا كن سبيل العمى أعمت بصائرکم	فألبيستكم ثيابا للبلوى جدداً
يا أمة هتكت مستور سوءتها	ما كل من ذل أعطى بالصغار يداً
في سورة الحشر آيات مفصلة	في شأنكم أنزلت لم تعدكم أحداً

(١) ينظر: جماليات المكان في شعر عرار، ١٩١.

(٢) الروض المعطار، تحقيق: لفي بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٣٧، ٤١.

(٣) هو أحمد بن عمر بن عبدالله الحضرمي الخطيب بجامع إشبيلية يكنى بأبي القاسم من أهل العلم والأدب وله أشعار في رثاء قرطبة (ت: ٤١٠ هـ). ينظر: الحلقة، ١/ ٦٤٠.

فاستشعروا سوءَ عُقباكم فقد شَمَلَتْ جميعُكم محنةٌ لا تنقضى أبداً^(١)

فبكى شعراء الأندلس مدينتهم الغالية ((موطن أولى العلم والنهى ..وينبوع
تفجر العلوم وقبة الإسلام وحضرة الأنام ودار صوب القلوب))^(٢) فهذا ابن دراج
يرثى الحواضر الأندلسية وبأسلوب شجى ومؤثر محاولاً أن يثير النفوس ويحرك
الكوامن ويستنهض الهمم ويصف لنا كيف أصابها الحزن بعد السرور والجللاء،
والنقمة بعد النعيم ومن ليل قصير إلى ليل طويل محاولاً نقل تلك المأساة المؤلمة
والصراعات المدمرة إلى على بن حمود^(٣) الذى امتدحه فى هذه القصيدة فلنستمع
لقوله:

ومن دوننا أنساتُ الدِّيارِ	نهابَ الحمى موحشاتِ الطُّلولِ
يهيجُ فيها زفير الرياحِ	مدامعَ شجْوِ السَّحابِ المخيلِ
وتلطمُ فيها أكفُ البروقِ	خدودَ عراسٍ عَلَيْنَا ثُكُولِ
تظلمُ من هاطلاتِ الغمامِ	وتشكُّو من الريحِ جرَّ الذُّيولِ
مغانى السرورِ لبسنَ الحدادَ	على لابساتِ ثيابِ الذهبِولِ
خطيباتِ خطبِ النُّوى والمهورِ	مهارى عليها رحالِ الرحيلِ
فمن حرَّةٍ جليتِ بالجللاءِ	وعذراء نصَّتْ بنصِّ الذمِيلِ
ولا حلى إلا جُمانُ الدموعِ	يسيلُ على كلِّ خدٍّ أسيلِ
فبذلنَّ من بعدِ خَفَضِ النعيمِ	بشقِّ الحزونِ وَوَعَثِ السَّهولِ

(١) البيان المغرب، ٣/ ١١٠.

(٢) نفع الطيب، ٩/ ٢.

(٣) هو على بن حمود بوع بيباب السدة من قصر قرطبة ثانى اليوم الذى أخذ بئار هشام المؤيد، لقب
بالناصر لدين الله وهو مفتوح الباب يقيم الحدود. ينظر: البيان المغرب، ٣/ ١٢٢.

ومن قِصَرِ الليلِ تحتِ الحِجَالِ بهولِ السّرى تحت ليلٍ طویلٍ^(١)

فهو يبكى ويتأسف على ما أصاب تلك الخواضر والمدن من دمار وما فعلت بها أيدي الزمان وهذا الشعر مرده إلى ولوع النفس بتلك الديار وتذكر أحبابها.

أما ابن شهيد ((شيخ الحضرة العظمى وفتاها ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها، وينبوع آياتها ومادة حياتها))^(٢) هو الآخر يبكى قرطبة ذلك المكان الذي ضمه بين حناياه فألهمه العلم والدراية فيبكيها بكاء موجعاً ومؤثراً وبنغمة حزن وأسى حيث قال:

ما فى الطُّلُولِ مِنَ الْأَحْبَةِ مَخْبِرُ	فمن الذى عن حالها نَسْتَخْبِرُ
لا تَسْأَلَنَّ سِوَى الْفِرَاقِ فَإِنَّهُ	يُنَبِّئُكَ عَنْهُمْ أَنْجِدُوا أَمْ أَغُورُوا
جَارَ الزَّمَانِ عَلَيْهِمْ فَتَفَرَّقُوا	فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَبَادَ الْأَكْثَرُ
جَرَتْ الْخُطُوبُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ	وَعَلَيْهِمْ فَتَغَيَّرَتْ وَتَغَيَّرُوا
فَدَعِ الزَّمَانَ يَصُوغُ فِي عِرْصَاتِهِمْ	نُورًا تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تَنُورُ
فَلَمَثَلِ قَرْطَبَةٍ يَقِلُّ بِكَاءٍ مِنْ	يَبْكِي بَعَيْنٍ دَمْعُهَا مَتَفَجِّرُ
دَارٍ أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَةَ أَهْلِهَا	فَتَبَرُّرُوا وَتَغَرُّرُوا وَتَمَصَّرُوا
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ فَرِيقٌ مِنْهُمْ	مُتَفَطِّرٌ لِفِرَاقِهَا مُتَحَيِّرُ ^(٣)

فهو يسأل عن حال قرطبة فما وجد فيها إلا الفراق، ولعب الزمان بها فرأى أن البكاء لا يحق إلا لقرطبة تلك الدار التي تفرق أهلها وأصبحوا في كل ناحية وصبوب.

(١) ديوان ابن دراج، ٧٨.

(٢) الذخيرة، ١٩١/١.

(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسي، ١٠٩-١١٠.

إن الأندلس قد أصابها خطب عظيم فقد محيت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى فصارت صحارى مجدبة بعد العمران وفيافي موحشة بعد الأنس، لقد ازداد ابن شهيد أسفا على قرطبة وما آلت إليه حالها فتعود به الذاكرة إلى الوراء متذكرا أماكنها المؤلفة التي قضى فيها أجل الأيام فيذكر ساحاتها الواسعة وأنهارها العذبة ورياضها الزاهية وغيرها من الأماكن فألهبته العواطف وقذفت به في بحار هواها فراح يقول:

يا جنه عَصَفَتْ بها وبأهلها	ريحُ النّوى فتدمّرت وتدمّروا
آسى عليك من الممات وحقّ لى	إذا لم نزل بك فى حياتك نفخرُ
كانت عراضك للمُيمّم مكة	ياؤى إليها الخائفون فينصروا
يا منزلاً نزلت به وبأهلِهِ	طيرُ النّوى فتغيّروا وتتكروا
جاءَ الفراتُ بساحتك ودجلةٌ	والنيلُ جاءَ بها وجادَ الكوثرُ
وسُقيت من ماء الحياة غمامةٌ	تحيا بها منك الرياض وتزهرُ
أسفى على دارٍ عهدت ربوعها	وظباؤها بفنائها تتبخرُ
أيامَ كانت عينُ كلِّ كرامةٍ	من كل ناحيةٍ إليها تنظرُ
أيامَ كان الأمرُ فيها واحداً	لأميرها وأمير من يتأمرُ
أيامَ كانت كفُّ كل سلامةٍ	تسموا إليها بالسلام وتبدرُ
حزنى على سرواتِها وروائِها	وثقاتِها وحُمائِها يتكرّرُ
نفسى على آلائِها وصفائِها	وبهائِها وسنائِها تتحسّرُ
كبدوى على علمايها حلمايها	أدبايها ظرفائها تنفطّرُ ^(١)

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي، ١١٠-١١١.

فقد استطاع ابن شهيد أن يرسم لنا صورة قرطبة الحزينة بعد أن كانت جنة الدنيا فعصفت بها وبأهلها ريح النوى فيأسى عليها بعد أن كانت ساحتها للميم مكة يؤوى إليها كل خائف ويأسف عليها مرة أخرى عندما يذكر ظباءها وهى تتمايل وتتبختر بساحاتها، وأيام كانت كل عين ناظرة إليها فهو حزين عليها وعلى علمائها ورواتها وأدبائها وبقلب متفطر كثير الأسى والحزن.

لقد استطاع الشاعر الأندلسى أن يرثى تلك الأماكن والديار بأسلوب شعري حزين فتفرد إليه الأمر وجاد القول حتى ألم بأروع قصائد الرثاء المتمثلة بحزن عميق وألم وفراق، وجسدوا في قصائدهم صدق العواطف ورهافة الإحساس وبلوغ المراد والإجادة في الصواب.

٢- المكان والفخر

إن للمكان دوراً فاعلاً في تحفيز الشعراء على التفاخر، بما أن الفخر هو التغنى بالفضائل والمثل العليا والزهو بالفعال الطيبة فقد أجاز شعراء الأندلس بذلك.

وأول مَنْ يطالعنا من شعراء هذه الحقبة هو عبد الله بن الشمر^(١) (ت: ٢٣٥هـ) الذى أشاد بجامع قرطبة مفتخراً به بعد أن بناه عبد الرحمن الداخل فقال:

بنى مسجداً لم يُبنَ لله مثلهُ	وهل مثلهُ فى قبضةِ الله مسجداً
سوى مُبتنى الرحمن والمسجدُ الذى	بناه نبي المسلمين محمدُ
له عمدٌ خضرٌ وحمراً كأنما	تلوحُ يواقيتُ بها وزيرجدُ ^(٢)

إنه المسجد الذى لم يبن مثله سوى مبنى الرحمن ومسجد الرسول محمد صلى الله

(١) هو عبد الله بن الشمر بن نمير كنيته أبو محمد (ت: ٢٣٥هـ). ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ١/ ٣٩٤، جذوة المقتبس، ١/ ٣٧١.

(٢) عبد الله بن الشمر شاعر أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ونديمه، د. حياة قارة، مجلة الذخائر، ٥، السنة الثانية، ٢٠٠١م، ١٢٥.

عليه وسلم فهو يفتخر بذلك المسجد وبأعمدته التى تلوح وتظهر لنا كأنها ياقوت وزبرجد.

ويطالعنا العتبي^(١) بأبيات جميلة مفتخرا بها بنصر الأمير محمد فى معركة وادى سليط وهى من أمهات الوقائع فقال:

سائل عن الثغر الصَّوَّارِمَ تصدِّقْ	واستَنطقِ السُّمَرَ العوَالى تَنطِقْ
تَرَكْتُ وقائعَ فى الثَّغورِ وقد غَدَتْ	مثلاً بكلِّ مغربٍ ومُشرقِ
وأداخَ أرضَ المُشركينَ بـوَقعةٍ	تركتهم مثلَ الإِشاءِ المحرقِ
جَادتْ عَلَيمُهم حَرُّهُ بصواعقِ	تركتهم مثلَ الرَّمادِ الأزرقِ ^(٢)

هذه الأبيات امتدح فيها الأمير محمداً مفتخراً بما حققه من انتصارات فى وادى سليط، ومحاولا إيقاع صورة حوارية من خلال قوله (سائل عن الثغر) أى سائل عن هذا البطل ذلك المكان، بأنه ترك فى تلك الثغور مثلاً لكل من فى الشرق والغرب.

وعلى ما يبدو أن أكثر شيء افتخر به الأندلسيون هو البناء فحتى الأمراء كانوا يتفاخرون به فهذا عبد الرحمن الناصر يفتخر بما قام به من بناء وما شيد من عمران حيث يقول:

هَمُّ المُلوكِ إذا أرادوا ذِكْرَهَا	من بَعْدَهُم فبِالسُّنَنِ البُنيانِ
أو ما ترى الهرمين قد بقياً وكم	ملكُ مَحَاهُ حوادثِ الأزمانِ

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة الأندلسى يعرف بالعتبى، منسوب إلى عتبة بن أبى سفيان، رحل إلى المشرق، وألف كتاباً فى الفقه، ينظر: بغية الملتمس، ١/ ٧٠، المغرب، ١/ ١٣٤

(٢) البيان المغرب، ٢/ ١١٢

إِنَّ الْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُهُ أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ^(١)

فهو يحاول من خلال هذه الأبيات أن يقيم شيئاً يخلد له التاريخ مستمداً هذه النظرة من خلال ما تركه الفراعنة من أهرام شاخصة في مصر، وهذا دليل على عظمة شأن الملوك.

ومن أشاد ببناء عبد الرحمن الناصر هو وزيره عبيد الله بن إدريس^(٢) (ت: ٣٥٢ هـ) حيث يقول:

سَيَشْهَدُ مَا شَيَّدْتَ أَتَّكَ لَمْ تَكُنْ مُضِيعًا وَقَدْ مَكَّنْتَ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا
فَبِالْجَامِعِ الْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَالتَّقَى وَبِالزُّهْرَةِ الزَّهْرَاءِ لِلْمَلِكِ وَالْعَلِيَّا^(٣)

فالجامع المعمور والزهرة والزهراء هي خير شاهد على ما شيدته من صروح الحضارة الأندلسية.

أما أبو المطرف بن أبي الحباب^(٤) فقد قال أبياتاً مفتخراً فيها بالمنية العامرية وهي المدينة التي أسسها المنصور محمد بن أبي عامر في سنة ٣٦٩ هـ وتقع إلى جانب مدينة الزهراء^(٥) وهذه الأبيات قالها عندما وقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد تفتحتا وواحدة لم تفتح بعد فقال:

لَا يَوْمَ كَالْيَوْمِ فِي أَيَّامِنَا الْأَوَّلِ فَالْعَامِرِيَّةُ ذَاتُ الْمَاءِ وَالظُّلْلِ

(١) المغرب في حلّ المغرب، ١/ ١٧٩-١٨٠.

(٢) عبيد الله بن إدريس كنيته أبو عثمان من أهل قرطبة كان مفتناً في ضروب العلم وكان الشعر أشهر أدواته، وكان عالماً متواضعاً (ت: ٣٥٢ هـ)، ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، ١/ ٤٣٠.

(٣) المغرب في حلّ المغرب، ١/ ١٨٠.

(٤) هو أبو المطرف بن أبي الحباب كان أديباً شاعراً في أيام المنصور بن أبي عامر، ينظر: جذوة المقتبس، ٦٣٦/٢، بغية الملتبس، ٧٠٨/٢.

(٥) ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣ م، ١/ ٢١٣.

ما أن يُبالي الذى يحتلُّ ساحتها بالسعد ألا تحلّ الشمس فى الحَمَلِ
 كأنما غُرستْ فى ساعة وبدا الـ سوسانٌ من حينه فيها عَجَلِ
 أبدت ثلاثاً من السوسان مائلةً أعناقهنّ من الإعياء والكَسَلِ
 كأنها راحة ضمت أناملها من بعد ما ملئت جودك الحَضَلِ^(١)

أما قرطبة فهي قبة الإسلام ذاع لها من الصيت والشهرة ما لم تصل إليه مدينة أخرى فهي ((من أشهر مدن الأندلس))^(٢) قال عنها ابن حوقل التاجر الموصلّي: ((وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة وليس لها بالمغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة))^(٣).

لذلك أخذ شعراء الأندلس يتفاخرون بتلك البقعة الكريمة ومن جاء بذكرها والفخر بها أبو محمد بن عطية^(٤) حيث قال:

بأربع فاقت الأمصار قرطبةً منهنّ قنطرة الوادى وجامعها
 هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أكبر شيء وهورابعها^(٥)

إنها رمز للمكان بينائها ورمز للتاريخ والحضارة بعلمها وعلمائها

أما ابن العريف النحوي^(٦) فيذكر أنه دخل على المنصور بن أبى عامر وهو بالعامرية فأنشد أبياتاً مفتخراً بذلك المكان ومادحا الأمير حيث قال:

(١) جذوة المقتبس، ٦٣٦/٢، وينظر: نفح الطيب، ٥٨٢/١.

(٢) نفح الطيب، ١٥٣/١

(٣) معجم البلدان، للإمام شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت الحموى، دار الفكر، مج ٤/٣٢٤.

(٤) أبو محمد بن عطية، ينظر ترجمته في الباب الرابع من: نفح الطيب، مج ٤/٣٢٤.

(٥) نفح الطيب، ١٥٣/١

(٦) ابن العريف النحوي: هو الحسن بن الوليد، يكنى بأبى القاسم، ويعرف بابن العريف النحوى، إمام في العربية، أستاذ في الأدب، كان يحضر مجالس المنصور بن أبى عامر. ينظر: جذوة المقتبس، ١/٣٠٠، بغية الملتبس، ٣٢٩/١.

فالعامة زهية على على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان^(١)

وعلى أثر هذه الأبيات قام صاعد البغدادي^(٢) وكان مناقضا له فقال أسعد الله
تعالى الحاجب الأجل ومكن سلطانه هذا الشعر الذي قاله قد أعده وروى فيه، أقدر
أن أقول أحسن منه ارتجالاً.. فقال له قل فقال:

يا أيها الحاجب المع تلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل بمان
العامة أضحت كجنت الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان^(٣)

إن هذه الأبيات تشير وبشكل واضح إلى أن تلك الأماكن قد شغلت شعراء
الأندلس فأنشدوا بها وتفاخروا بالقول فيها، ولصاعد اللغوي أبيات أخرى في
الزاهرة فهو يفتخر بها بأنها غزوة بقلوب الشرك فهي نصر عظيم ومكان زاه على
مدى الدهر والسنين، حيث يقول:

يا أيها الملك المنصور من يمن والمبتنى نسباً غير الذي انتسبا
بغزوة في قلوب الشرك رائعة بين المنايا تناغى السمر والقضبا
أما ترى العين تجري فوق مرمرها هوى فتجرى على أحفافها الطربا

(١) نفح الطيب، ١/ ٥٨٢-٥٨٣

(٢) هو صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي اللغوي، كنيته أبو العلاء ورد من المشرق إلى الأندلس في
أيام هشام بن الحكم المؤيد وولاية المنصور بن أبي عامر في حدود الثمانين وثلاثمائة وكان أصله من
ديار الموصل، كان عالماً باللغة والأدب وحسن الشعر.

ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٣٧٣، الذخيرة، ق، ٤، مج ١/ ١٠١.

(٣) نفح الطيب، ١/ ٥٨٠-٥٨١.

أَجْرَيْتَهَا فَطَمَأَ الزَّاهِي بِجَرَيْتِهَا كَمَا طَمُوتَ فَسَدَتِ الْعُجْمَ وَالْعَرَبَا
تَخَالُ فِيهِ جُنُودَ الْمَاءِ رَافِلَةً مُسْتَلْثِمَاتُ تَرْيُكَ الدَّرْعِ وَالْيَلْبَا
تَحْفَهَا مِنْ فَنُونِ الْأَيْكِ زَاهِرَةً قَدْ أَوْرَقَتْ فَضَّةً إِذْ أَوْرَقَتْ ذَهَبَا
لَا يَحْسُنُ الدَّهْرُ أَنْ يُنْشَى لَهَا مِثْلًا وَلَوْ تَعَنَّتَ فِيهَا نَفْسَهُ طَلَبًا^(١)

أما ابن شهيد فهو الآخر يفتخر بقرطبة معبرا عن حبه لها فهي على الرغم من كونها عجوزا بالية أضناها الخراب والدمار إلا أنه يرى فيها ما لم ير في مكان آخر حيث يقول:

عَجُوزٌ لِعَمْرُ الصَّبَا فَازِيَةٌ لَهَا فِي الْحِشَا سُورَةُ الْغَانِيَةِ
رَزَّيْتُ بِالرَّجَالِ عَلَى سَوْنِهَا فَيَا حَبِّدَا هِيَ مِنْ زَانِيَةِ
تُرِيكَ الْعُقُولَ عَلَى ضَغْفِهَا تُدَارُ كَمَا دَارَتِ السَّائِيَةِ
فَقَدْ عَزَيْتُ بِهَوَاهَا الْخُلُو مُفْهَى بِرَاحَتِهَا عَاتِيَةِ
تَقَاصِرُ عَنْ طَوْلِهَا قُونَكَةً وَتَبْعُدُ عَنْ غُنْجِهَا دَانِيَةِ
تَرْدَيْتُ مِنْ حُزْنٍ عِشَى بِهَا غَرَامًا فَيَا طُولَ أَحْزَانِيَةِ^(٢)

لم يكن هذا الفخر بتلك الأماكن شيئاً اعتباطياً وإنما جاء نتيجة العواطف المنفعلة التي ألهبتها مشاعر الحب والفخر لتلك الأماكن لذلك جاءت أبيات شعراء الأندلس بمشاعر دافئة وعواطف صادقة، وظلت تلك الأماكن بصورها ومعالمها أشبه بالينبوع الذي يستمد منه ذلك الفخر، وهيات جوا شعريا مفعما بالارتياح منح الشعراء القدرة على الإبداع والتصوير بكل ما يحيط به

(١) نفح الطيب، ١/ ٥٨٠-٥٨١

(٢) ديوان ابن شهيد ٦٨.